رحلـــــة حظيرة الأنس إلى حضرة القدس لابن نباتة المصريّ ت ٧٦٨ هـ.
(دراسة موضوعيّة وفنيّة)

"Journey" Haderat Al-Uons Ela Hadarat Al_Quds Ibn Nobata Al-Masry 768H.

رائد عبد الرحيم

قسم اللغة العربية وآدابها. كلية التربية للمعلمات. جامعة البنات. القويعية. منطقة الرياض. السعودية.

بريد إليكتروني: rarrabeh@yahoo.com

تاريخ التسليم: (٢٠٠٤/٨/١١)، تاريخ القبول: (٢٠٠٥/٩/٢٠)

ملخّص

كثرت أعداد الرحلات التي قام بها ودونها أدباء عاشوا في العصر المملوكي. الأمر الذي أفرز نوعاً أدبيّاً له سماته الفنية الخاصة به. وهو أدب الرحلات. وقد عني الباحثون بدراسة بعض تلك الرحلات[١]. وبعضها الآخر لم تصل إليها أيدي الباحثين بعد[٢]. ولم تعن بها دراسة علمية مستقلة. ومنها "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس"[٣] لابن نُباتة المصري[٤]. من هنا جاء هذا البحث ليلقي الضوء على جوانبها الموضوعية والفنية. تناول الجانب الموضوعي دواعي الرحلة. واسمها. وتدوينها. ومنهج الكاتب في تدوينها. ومضامينها. أما الجانب الفني. فاشتمل على بناء الرحلة. واللغة والأسلوب. والاتباعية. والفنون البديعية. والصورة الفنية.

---

(١) من هذه الدراسات د.حسني محمود. أدب الرحلة عند العرب. جورج غريب. أدب الرحلة تاريخه وأعلامه. أحمد أبو سعد. أدب الرحلة وتطوره في الأدب العربي. علي محسن مال الله. أدب الرحلة عند العرب في المشرق. د. حسين نصّار. أدبيات أدب الرحلة.

(٢) منها على سبيل المثال "رحلة ابن حجة الحموي إلى البلاد الرومية". و "رحلته من مصر إلى دمشق". انظر ابن حجة ثمرات الأوراق ص٣٧٠-٣٩٥.

(٣) احتفظ ابن حجة الحموي بهذه الرحلة في كتابه "ثمرات الأوراق". ص ٣٥٨-٣٧٠. وهي رحلة صغيرة عدد صفحاتها في الكتاب اثنتا عشرة صفحة مطبوعة بخط صغير.

(٤) انظر ترجمته في: الصفدي. الوافي بالوفيات. ٣١٠/١. ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ٧٦/١١. الدليل الشافي. ٧٠٠/٢. ابن حجر. الدرر الكامنة. ٣٣٩/٤. السخاوي. الذيل التام. ص ٢٢٣. وجيز الكلام. ١٥٨/١. المقريزي. السلوك. ٣٠٩/٤. د. عمر موسى باشا. أمير شعراء المشرق.

Abstract

The journey's numbers which the authors of Al-Mamloki age have done and made, have been multiplied, the reason that produced a kind of literature that has is special Artistic characters, and which is the "journeys literature". The researchers has card to study some of these journies, and some other haven't been reached by the researchers yet, and haven't been studied independently, and one of those is "Haderat Al-Uons Ela Hadarat Al_Quds by Ibn Nobata Al-Masry", and from here comes the research to highlights on its Artistic and objective aspects taking the objective aspect, the jorum's, its name, writing, the authors curriculum in writing, and its themes. But the Artistic aspect included, the journey's construction, the language and style an attachments, the innovational Arts, and the compassion images.

القسم الأوّل: الدّراسة الموضوعيّة

دواعي الرحلة

تعدّدت دوافع الرّحالة العرب في رحلاتهم[٥]. ومنها تسرية الحزن. فقد "كان الشاعر العربي منذ الجاهلية. إذا اشتد به الكرب. وضاقت منه النفس. يمتطي ناقته. ويضرب في الصحراء بغية التخفّف من الحزن والخلوص إلى الفرج. وبقيت تلك عادته في الاسلام". وكذلك فعل ابن جبير. فعقب وفاة زوجته. اشتد حزنه عليها. فرحل رحلته الثالثة إلى المشرق. وتوفي في الإسكندرية[٦].

أما رحلة ابن نباتة. فقد كان ذلك الدافع وراء قيامه بها. فقد ابتلى الله هذا الشاعر. كما يقول الصّفدي. بموت أبنائه فلم "يعش له ولد. فدفن. .. قريباً من ستة عشر ولداً. كلّهم إذا ترعرع. وبلغ خمساً أو ستاً أو سبعاً. يتوفاه الله تعالى. فيجد لذلك الآلام المبرحة. ويرثيهم بالأشعار الرائقة الرقيقة"[٧].

---

(٥) انظر د. حسين نصار. أدبيات أدب الرحلة. ص٤٤-٤٩. انظر كتاب علي محسن مال الله. أدب الرحلة عند العرب في المشرق.

(٦) د. حسين نصار. أدبيات أدب الرحلة. ص٤٦.

(٧) الصفدي. الوافي بالوفيات. ٣١٢/١.

كان ابن نباتة قبل رحلته. قد توفي ابنه عبد الرحيم. فأصابه موته بكمد عظيم. وحين رآه الأشرف الصاحبي الوزير الأميني[٨] على حالته تلك. عرض عليه أن يرافقه في زيارته إلى القدس الشريف. لعله يخفف عنه ما كان يعانيه من آلام مبرحة وأسى كبير. فاستجاب ابن نباتة لدعوة الوزير. وهذا ما عبر عنه في "حظيرة الأنس" إذ قال مشيراً إلى الوزير الأميني: "فلما عزم بدمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف. اطّلع رأيه الشريف على ما في خاطري. وأمرني بالمسير في ظل ركابه. فَسُرّ على الحقيقة سائري، ... ونظر لحالي. ولا يُنْكَر النظر في الأحوال لسيد الوزراء والزهاد. وكان له في اصطحابي مقصد. تقبّل الله عمله الصالح. ومتجره الرابح. وذلك أني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي. مقيماً بين المقابر إقامة تفتّ حبة قلبي على قطعة كبدي. ساقياً روض الحزن بغمائم الجفون. باكياً على دينار وجه عاجلته الأيام بصرف المنون. أطلب قلبي في الترب. وأنشده. وأطارح صوت الصدى. فينشدني وأنشده. .. "[٩].

وأشار ابن نباتة إلى سبب آخر دعا الوزير الأميني إلى اصطحابه. وهو رغبته في تقريبه منه. ويتجلى ذلك في قوله: "فاقتضى تدقيق النظر الصاحبي في إسداد العوارف. وإبداء عواطف الفضل. وفضل العواطف أن يَنْزِع عنّي بصحبة ركابهِ الكريم لباس الباس، ... ويقرب مثلي قُرْباً لا يفطن لمثله إلا مَنْ وَمَن"[١٠].

وقد حققت الرحلة نتائجها. إذ وُطدت علاقة ابن نباتة بالوزير الأميني وقرره الأخير "أن يكون في كل سنة ناظر القِمامة[١١] بالقدس الشريف أيام زيارة النصارى لها. فيتوجه يباشر ذلك ويعود"[١٢]. وساهمت الرحلة في التخفيف من حزن ابن نباتة ولوعته. وقد عبر عن هذا وذاك في قوله: "فيالها سَفْرةً قابلها وجه الإقبال بالسُّفور. وتلا فضلها "الحمد لله الذي أذهب عنا الحزَن إنّ ربّنا لغفورٌ شكورٌ". ومدّ فيها للإنعام ظلاً ظليلاً. وملا بيتي وعيني دقيقاً جليلاً"[١٣].

اسم الرحلة

أطلق ابن نباتة على رحلته اسم "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس". وهذه التسمية تتكون من عنصرين:

---

(٨) هو أمين الدين عبد الله بن تاج الرئاسة القبطي. أسلم على يد بيبرس الجاشنكير. تولى الوزارة ثلاث مرات في القاهرة. ثم طلب إعفاءه. لكنه ما لبث أن تولى نظر الدواوين بدمشق سنة ٧٣٣هـ. مات خنقاً بعد نكبة تنكز سنة ٧٤١ هـ. انظر ابن حجر. الدرر الكامنة. ٢/٢٥١-٢٥٢. ابن الوردي. تاريخ ابن الوردي. ٢/٣٢٩.

(٩) ثمرات الأوراق. ص٣٦٠.

(١٠) ثمرات الأوراق. ص ٣٦١.

(١١) يعني كنيسة القيامة.

(١٢) الوافي. ٣١٢/١.

(١٣) ثمرات الأوراق. ص٣٦١.

الأول: "حظيرة الأنس": تعني لفظة حظيرة. كما ورد في لسان العرب. الحَظْر والحَصْر. والإحاطة بالشيء. يقول ابن منظور: "والحظيرة: جَرين التمر ... لأنه يحظره ويحصره. والحظيرة: ما أحاط بالشيء. و "الحظيرة تُعمل للإبل من شجر لتقيها البرد والريح"(١٤).

لقد وظف ابن نباتة هذه اللفظة توظيفاً دقيقاً. ومتلائماً مع المقام الذي اختارها له. إذ استخدمها ليجعل الأنس كلَّه محصوراً بهذه الرحلة. ومحظوراً على غيرها. الأمر الذي يدل على أثرها الإيجابي في نفسه. وكيف لا تكون كذلك وهي التي أطفأت جراحه. وقربته من الوزير. وجعلته يحظى بأنسه ونِعَمه. وحققت له بعض ما كان يصبو إليه من المجد.

وفي توظيف تلك الكلمة أيضاً. مجاملة للوزير الأميني. واعتراف بجميله. وإشعار له بأن جهوده في التخفيف عن ابن نباتة قد أثمرت. وأتت أُكُلها.

ويؤكد أُنس الكاتب وسعادته العظيمة برفقة الوزير. تعبيره عن ذلك في غير موضع من رحلته(١٥).

الثاني: "إلى حضرة القدس". زار ابن نُباتة والوزير أمين الملك غير موضع ومدينة في فلسطين. منها يافا. وبيسان. والرملة. والخليل. ولكنّ وجهتهما الأولى كانت القدس. ولهذا جعلها عنوان رحلته. هذا فضلاً عن مكانة تلك المدينة الدينية. وقداستها عند المسلمين وغيرهم.

ومن الجدير ذكره أنّ الصفدي أطلق على تلك الرحلة اسماً آخر. إذ قال في ترجمة ابن نباتة: "وسمعتُ من لفظه "النِّحلة الأُنْسية في الرحلة القدسية"(١٦). وهنا يتساءل المرء: هل يتحدّث الصفدي عن رحلة أخرى قام بها ابن نباتة ؟ أم هو اسم آخر أطلقه ابن نباتة على رحلته ذاتها؟

يرى د. عمر موسى باشا أن ذلك الإسم هو عنوان كتاب آخر. جمع فيه ابن نباتة رحلته "حظيرة الأنس". وفصّل فيه الحديث عن مجرياتها(١٧). ويؤكد رأيه ما ذكره ابن نُباتة في "حظيرة الأنس" اذ صرح فيها أنه سيفصّل الحديث عن رحلته في سِفْر آخر. فقال: "وتمت هذه السّفرة على أحسن ما يكون. واشتملت من وجوه المحاسن على عيون. ... والتَقَطتُ من الفوائد الوزيرية ما كنت أرتقب جواهره وأزاهره. وأردت أن أذكرها في هذه الخطبة. لأنها جواهر. وأضمّها بعض العلم في هذه الأوراق فإنها أزاهر. فَكثُرتْ على هذا اللفظ المسجوع. واقتضى الحال أن أجمعها في سِفْر يُقال فيه: تلك رحلة. وهذا تاريخ ومجموع "(١٨).

من هنا يمكن القول: إن "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس" هي التي وصلتنا. أما "النِّحلة الأُنسية". فلا تزال مفقودة.

---

(١٤) ابن منظور. لسان العرب. مادة "حظر".
(١٥) انظر ص٤ من هذا البحث. وسيأتي الحديث عن ذلك ص١٣-١٤.
(١٦) الوافي. ٣٢٠/١.
(١٧) د. عمر موسى باشا. أمير شعراء المشرق. ص٢٣١.
(١٨) ثمرات الأوراق. ص٣٧٠.

تدوين الرحلة

تحدث ابن نباتة في غير موضع من رحلته عن تدوينها. فبيّن أن الوزير الأميني طلب منه ذلك. فقال " وأمرني أنْ أصف له المنازل والطرق وصفاً"[١٩]. وقال "واقتضى الحال أن أجمعها في سفر يقال فيه: تلك رحلة. وهذا تاريخ ومجموع"[٢٠].

ويفهم من كلام ابن نباتة أنه كتب رحلته على شكل يوميات. كما يبدو في قوله فيها: "وتمت هذه السفرة على أحسن ما يكون. واشتملت من وجوده المحاسن على عيون. قضيتُ المهمّات بها بالنهار. وقضيتُ في الليل المذاكرة "[٢١].

إن تدوين ابن نُباتة رحلته بنفسه يرد على الدكتور حسين نصار الذي نفى أن يكون هناك أديب كبير قد دوّن رحلته بنفسه إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين. وهذا ما يتجلى في قوله: " يلفتُ منا النظر إذا فتّشنا عن واحد من كبار الأدباء في القرون الإسلامية الأولى منحنا رحلة مدوّنة لم نجد. وإنما يَنْسلّ إلى هذا الفن الأدباء بعد انقضاء قرون طوال. ثم لا يلجه أحد ممن نعدهم من كبار أدبائنا إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين والأخيرة خاصة"[٢٢].

منهج ابن نباتة في تدوين رحلته

دوّن ابن نباتة رحلته بأسلوب علمي دقيق. وهذا الأسلوب يظهر بجلاء فيها. وتتجلى ملامحه فيما يأتي:

أولاً: راعى الكاتب فيها التسلسل في ذكر الأماكن التي زاروها أو مروا بها. وذلك منذ لحظة الانطلاق حتى الوصول. ومن ثم العودة. هذا على الرغم من أن بعض الأماكن لم تكن وجهتهم. وإنما عَبَروها لتوصلهم إلى مقصدهم. ولعل ذِكْرها قصد منه ابن نباتة الكشف عن خط سيرهم. وعن الطرق التي سلكوها. وليكون بناء رحلته بناءً فنياً ناجحاً متلاحم الأجزاء. ويمكن تأكيد ذلك بعرض تلك الأماكن كما يلي:

دمشق ← الكُسْوة[٢٣] ← الصّنمين[٢٤] ← منزلة رأس الماء ← الحَصين[٢٥] ← عجلون ← الغور ← مشهد أبي عبيدة ← الخليل ← الرّملة ← مشهد زكريا ويحيى عليهما السلام ← قبر بنيامين أخي يوسف عليه السلام ← بَيْسان ← مشهد معاذ بن جبل ← الغور ← الصّنمين ← الكِسْوة ← دمشق.

---

(١٩) ثمرات الأوراق. ص٣٧٠.
(٢٠) المصدر نفسه. ص٣٧٠.
(٢١) المصدر نفسه. ص٣٧٠.
(٢٢) أدبيات أدب الرحلة. ص١٢٦.
(٢٣) قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر". معجم البلدان. مادة "الكسوة".
(٢٤) قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران". معجم البلدان. مادة "الصّنمان".
(٢٥) ذكر ياقوت أنها "بليدة على نهر الخابور". معجم البلدان. مادة "الحصين".

وتتجلى دقة الكاتب في تحديده للمزارات التي بدأوا بزيارتها. يقول: " واستفتحنا المزارات التي نوينا قصدها. .... بمشهد صاحب رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وهو أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه"(٢٦). كما حدّد الأماكن التي بدأوا بزيارتها داخل المدينة الواحدة. ويتضح ذلك في قوله حين وصلوا الخليل: " ثم نزلنا من محلّ الخليل على محلّ القرى. .. واستقبلنا بمقام إبراهيم أماناً"(٢٧).

وذكر ابن نُباتة آخر مكان زاروه في رحلتهم. فقال:" وختمنا الزيارة بمشهد معاذ ابن جبل رضي الله عنه"(٢٨).

ثانياً: "اعتمد الرّحالة على تحديد تواريخ الأحداث في دقة تامة. وبخاصة مَنْ جعلوا رحلاتهم يوميات. فاكتفى بعضهم بالتصريح باليوم الأول أو الثاني أو الثالث،..... وذلك أمر هيّن في الرحلات القصيرة"(٢٩).

اهتم ابن نُباتة بتحديد التواريخ والأوقات اهتماماً كبيراً. وذلك على مدار الرحلة كلها. فهو يذكر زمنها ووقتها. فيبين أنها كانت سنة ٧٣٥ هـ(٣٠). وفي فصل الربيع تحديداً. يقول واصفاً جمال الأرض ورونقها وقتذاك: "فسرنا وأيدي السعد قد ذللت الطرق. بل طوتها،.... والأرض قد شرعت في لباس حَلْيها وحُلَلِها. ومراعي الربيع قد وُعدت من الشمس بتسمين حَمْلها"(٣١).

وحدّد ابن نُباتة وقت وصولهم إلى بعض الأماكن والمدن. وتحدّث عن مدة إقامتهم فيها. فالقدس وصلوها "طرّة الصبح تحت أذيال الظلام"(٣٢). وأقاموا فيها سبعة أيام(٣٣). وأقاموا في الرّملة " ثلاثة أيام "(٣٤). أما مدة إقامتهم قرب مشهد زكريا ويحيى عليهما السلام. فيذكرها في قوله: " وبتنا ليلةً طيّبة نُحييها. ونُميت النوم. ونعصي بالسهر أمره. فما له سلطان على أعين القوم"(٣٥).

ويحدّد ابن نُباتة الزمن الذي قضوه. وهم يقطعون الكِسْوة عائدين إلى دمشق فيقول: "وقطعنا بالكُسْوة ليلاً طائلا". "وفي تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق المحروسة سابقين لغرّة الصّبح بغرر الخيل"(٣٦).

---

(٢٦) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٣.
(٢٧) المصدر نفسه. ص٣٦٧.
(٢٨) المصدر نفسه. ص٣٦٩.
(٢٩) أدبيات أدب الرحلة. ص٩٥.
(٣٠) ثمرات الأوراق. ص٣٦٠.
(٣١) المصدر نفسه. ص٣٦١.
(٣٢) ثمرات الأوراق. ص٣٦٤.
(٣٣) المصدر نفسه. ص٣٦٧.
(٣٤) المصدر نفسه. ص٣٦٨.
(٣٥) المصدر نفسه. ص٣٦٨.
(٣٦) المصدر نفسه. ص٣٦٩.

وتجلى اهتمامه بتحديد الوقت إذ قال حين توجهوا إلى الخليل: " وبرزنا في اليوم السابع من الأقامة وقد قدمنا نقصد الخليل "[٣٧].

ثالثاً: اتّسم منهج ابن نُباتة في تدوين رحلته بالإيجاز في التعبير والوصف. وهذا أسلوب جلي فيها. كونها رحلة قصيرة وموجزة. لامجال فيها للإطالة والإطناب. فقد اكتفى بالحديث عن الأشياء البارزة التي شاهدوها. أو قاموا بها.

رابعاً: استقى كثير من الرحالة العرب معلوماتهم من الناس والشعوب التي رأوها. واختلطوا بها. وكانت هذه المعلومات مصدرا مهمّاً من مصادر كتابة رحلاتهم. هذا إضافة إلى مشاهداتهم الشخصية. وخبراتهم العملية.

أما ابن نُباتة. فقد دون رحلته وفقاً لمشاهداته الشخصية حسب. ولم يعتمد في تدوينها على مصدر آخر. ولذا كثر فيها استخدام الأفعال الماضية الدالة على المشاركة في الأحداث ومعايشتها. مثل "أتينا". و "صعدنا". و "قدمنا". و "برزنا". و "نزلنا". و "سرنا" وغيرها الكثير.

ويؤكد اتّكاء الكاتب على خبرته الشخصية في تدوين رحلته. أنه لم يذكر البتة اعتماده على غيرها.

مضامين الرحلة

اشتملت رحلة "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس " على مضامين عدة. فقد تحدث مؤلفها عن مُتَعلّقاتها. وعن جوانب ثقافية وعلمية واقتصادية واجتماعية وجغرافية. اطّلعوا عليها إبان زيارتهم مدن فلسطين وغيرها من المدن.

أما مُتَعلّقات الرحلة. فتعني الأمور التي تتعلق بالرحلة ذاتها. مثل الحديث عن وقت الانطلاق. وصحبة السفر ووسائله. ومكان الإقامة. والأعمال التي قاموا بها خلال الرحلة. وأخيراً أثر تلك الرحلة في نفوسهم[٣٨].

أشار ابن نُباتة إلى وسيلة من وسائل السفر المستخدمة في رحلتهم. وهي الخيل. فقال: "... وَمَرَرْنا والخَيْلُ تَجْمِزُ جَمْزاً"[٣٩] "وسَلكنا جانب الغور. . وخُضنا في حديثه وخاضت الخيل"[٤٠].

وتحدّث عن صحبة السفر. فبيّن أنهم كانوا في مجموعة. واتّضح ذلك من استخدامه لفظة "الرّفاق". والأفعال المستندة إلى ضمير المتكلم الدال على الجمع "نا". ولكنه لم يذكر من تلك

(٣٧) المصدر نفسه. ص٣٦٧.
(٣٨) انظر أدبيات أدب الرحلة. ص١١٤.
(٣٩) ثمرات الأوراق. ص٣٦١.
(٤٠) المصدر نفسه. ص٣٦٣.

المجموعة سوى الوزير الأميني. وشخصاً آخر يدعى" الخُلد ". إذ قال: " وكان معنا شخص يلقب بالخُلد سكن بيتاً حسناً. غَمَضَ عينه عن الرفاق تغميضا بيّناً"(٤١).

ومن الطبيعي أن تكون أعداد المشاركين في هذه الرحلة كبيرة. ذلك أن من قام بها. وأشرف عليها وزير من وزراء الدولة المملوكية تقتضي مكانته أن يصحبه خدم وحشم وجند. فضلا عن الأصدقاء والمقرّبين.

وكشف الكاتب عن مكان إقامتهم في بعض المدن التي زاروها ومنها القدس فقال: "وأقمنا في بيوت أذِنَ الله أن يُرْفَع شأنُها"(٤٢). وفي عجلون أقاموا كما يقول " بالخيام في مَرْجتها الخضراء تحت قلعتها الغرّاء"(٤٣).

أما عن أعمالهم التي قاموا بها في الأماكن التي زاروها. فقد أكثر ابن نُباتة من الحديث عنها. وبخاصة أعمال البر والإحسان التي قام بها الوزير أمين الملك. وما ذلك إلا رغبة منه في الإشادة بذلك الوزير. وتخليد أفعاله.

فقد أجزل الوزير الأميني العطاء لأهل القدس والخليل إذ توافدوا إليه(٤٤). وعقد في هاتين المدينتين مجالس ختم القرآن وتفسيره(٤٥). ورتّب في القدس " للشيخ والفقراء ما يحتاجون إليه من كل نوع فريد"(٤٦). وأمر الوزير بعمارة مبان كثيرة وترميم أخرى. وبخاصة الدينية منها والثقافية. ففي القدس أمر ببناء "الرُّواق على سطح الزاوية الصاحبية(٤٧) بباب الحرم الشريف"(٤٨). وفي مدينة الرملة. عَمَر ما خَربَ من مسجد الرُّكنيّ(٤٩). وحين وصلوا مشهد معاذ بن جبل "أمر بما يحتاج إليه من تجديد وعمارة"(٥٠).

ويلخص ابن نباتة أعمال الوزير خلال تلك الرحلة بقوله: " وألْحَقَ بكل مزار وردنا عليه في هذه السّيارة. فإنا لا نفارقه إلا عن إقامة صَلاة وصِلات. وتجديد آثار يَزين به وجه القبول كاتبُ الحسنات"(٥١).

---

(٤١) المصدر نفسه. ص٣٦٤.
(٤٢) المصدر نفسه. ص٣٦٤.
(٤٣) المصدر نفسه. ص٣٦٢.
(٤٤) انظر ثمرات الأوراق . ص٣٦٦. ٣٦٧.
(٤٥) انظر المصدر نفسه. ص٣٦٦. ٣٦٧.
(٤٦) المصدر نفسه. ص٣٦٦.
(٤٧) نسبة إلى الوزير الصاحبي أمين الملك. بناها في القدس الشريف للمتصوفة.
(٤٨) ثمرات الأوراق. ص٣٦٦.
(٤٩) المصدر نفسه. ص٣٦٨.
(٥٠) المصدر نفسه. ص٣٦٩.
(٥١) المصدر نفسه. ص٣٦٩. وانظر ص٣٦٢-٣٦٣.

وبرزت في هذه الرحلة نواح جغرافية وعمرانية وعلمية وثقافية واجتماعية. وهي أمور تجلّت واضحة في كتب الرحالة العرب. ولكنها ظهرت بصورة موجزة في" حظيرة الأنس" بصورة تتلاءم وعدد أوراقها المحدود.

كان الجانب الجغرافي أكثر جانب اتّضحت معالمه في رحلة ابن نُباتة. اذ عَدّد فيها أسماء أماكن كثيرة مرّوا بها وزاروها. وبعضها لا فائدة في ذكره إلا للأسباب التي ذُكرت سابقاً. وهي رغبته في تقديم صورة لخط سيرهم. وبناء رحلته بناءً فنياً ناجحاً[٥٢]. ومن تلك الأماكن ما ورد في حديثه عن خط سير الرحلة من دمشق إلى القدس يقول: "فأتينا الكِسْوة فلبسنا للمسرة ثياباً سابغة الذّيول. وطُفنا منها بكعبة الفضل طوافا. .... وجزنا بالصّنمين فهمّتْ أن تفخر بمواطئ خيلنا على اللات والعُزّى. وصعدنا منزلة رأس الماء...... "[٥٣]

وتحدث المؤلف عن المشاهد وقبور الأنبياء والصحابة والصالحين. ذاكراً أسماء أصحابها. وأماكن تواجدها. ومن ذلك ما جاء في قوله حين نزلوا الرملة متجهين إلى بَيْسان: "ورحلنا عن الرملة بنيّة الزيارة لمشهد زكريا ويحيى عليهما السلام فمررنا في طريقنا بجملة غير معترضة. ... تحتوي على قبر بنيامين أخي يوسف عليه السلام. فألحقناه بزيارة أخيه". "وسرنا والصدورُ منشرحةٌ والطريق إلى خير الدارين متّضحة. وجئنا المشهد وقد ظهرت عليه بضريحين كريمين بهجة الدين والدنيا"[٥٤]. وفي مدينة الخليل. وفي طريقهم إليها. زاروا قبر يونس عليه السلام. ومقام إبراهيم عليه السلام. يقول: "وزرنا قبر يونس عليه السلام في طريقنا". "واستقبلنا بمقام إبراهيم أماناً. واستلمنا من ضريح شائد الركن. ومن ضرائح أهله أركاناً"[٥٥]. وختموا رحلتهم بزيارة مشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه[٥٦].

ووصف ابن نُباتة الطبيعة وجمالها في بعض الأماكن والمدن. وأوحى بجمال بعضها إيحاء كما يبدو في قوله إذ توجهوا إلى بَيْسان: "وقوينا على قصد جنى الجنان. واستقبلنا محاسن بَيْسان"[٥٧]. وصور الكاتب دمشق إبّان عودتهم إليها. وما كانت تتحلى به من زهور وأنهار. ومناظر خلاّبة. فقال: ". .. نازلين من دمشق جنة قد تبسّمت لقدومنا عن ثغور الأزهار. وأجرت أمام ركابنا الأنهار. ولبست من وَشْي البديع حُللاً لها من أوائل ما انعقد من الثمار أزرار"[٥٨].

ووصف ابن نُباتة جوانب حضارية وعمرانية في المدن التي يمّموا شطرها. وهذا ما فعله إبّان زيارتهم القدس الشريف. إذ تحدث عن الحرم القدسي مُنوّها بجمال صنعته. وحسن إتقان

---

(٥٢) انظر ذلك تحت عنوان "منهج ابن نباتة في تدوين رحلته".
(٥٣) ثمرات الأوراق. ص٣٦١.
(٥٤) المصدر نفسه. ص٣٦٨.
(٥٥) المصدر نفسه. ص٣٦٧.
(٥٦) المصدر نفسه. ص٣٦٩.
(٥٧) المصدر نفسه. ص٣٦٨.
(٥٨) المصدر نفسه. ص٣٦٩.

سُقفه. وما فيه من رخام ومياه جارية. ويتجلى ذلك في حديثه عن الأماكن التي توجهوا إليها في القدس: " فمنها ما هو مخصوص بالحرم الشريف. نَستَلِمُ كالحُجاج أركانه. ونقلبُ وجوهنا في سماءِ سقُفٍ يكادُ يمطر علينا لُجينه وعُقيانه. ونشاهد رخاماً بلغ في الحسن والمحل الأقصى به "ويتابع وصفه فيقول" فأما المياه التي تجري في الحرم على رأسها. وتطوف على مواضع المنافع بنفسها. فتلك نعمة مقيمة. يكافئ الله عنها في دار المقامة"[٥٩].

ومثل ذلك الوصف ما جاء في حديثه عن الزاوية الصاحبية. إذ صور ما عملت فيها يد الصناع. وما أبرزوه من مهاراتهم في بنائها وتزيينها. يقول مشيرا إلى الوزير الصاحبي باني تلك الزاوية " وشرع في بناء الرُّواق على سطح الزاوية الصاحبية بباب الحرم الشريف. وأخذ راقم الرّخام في التوشيع والتفويف. فيالها ألواحاً كُتِبَ فيها من الحسن كلّ شيء"[٦٠]. وحين زاروا عجلون أُعجب ابن نباتة بقلعتها. فراح يصف حسنها وعلوّها. فقال: " وهي في معارج السحب صاعدة سائدة في الجو كأنها في البحر على عمود الصبح قاعدة. مضيئة بين عقود الأنجم كأنها الدُرّة اليتيمة"[٦١].

والتقط الكاتب صوراً من الحياة الثقافية والعلمية. وبخاصة في القدس الشريف. ومن مظاهرها التي تحدث عنها شيوع المدارس والربط والخانقاوات والزوايا ودور الحديث. يقول: "ومن المباني المذكورة ما هو خَصيص بمولانا السلطان ملك الأمراء[٦٢] أعز الله أنصاره. ... من مدرسةِ علمٍ. ... ودار حديث. ... وخانقاه تضيء عليها أنوار البركات الكوامل. ورباط. ومكتب للأيتام"[٦٣].

وشاعت حلقات الذكر والتفسير وخَتْم القرآن في بعض المدن وهذا ما أشار إليه ابن نُباتة حين تحدث عن إسهام الوزير أمين الملك في إقامتها والمشاركة فيها. كما يبدو في قوله متحدثا عن حلقات القدس: " ثم ثُليت الخَتَمات التي شرف الله تعالى ذكرها. ومواعيد التفاسير والرَّقائق التي أجرت الأوقاف الصاحبية أجرها"[٦٤]. ويتجلى ذلك في حديثه عن مجالس مدينة الخليل: "وثُليت الختمات. وجرت المواعيد على عوائدها المُحكمات"[٦٥]. وفي قوله: " على عوائدها المُحكمات " دلالة على شيوع المجالس الدينية هناك.

وتجلّت في هذه الرحلة مظاهر من حياة الناس الاجتماعية وبخاصة تلك الدالة على بؤس طائفة منهم وفقرها. وسوء حالها. ولعلّ إصرار الكاتب على إبراز هذا الجانب يعود إلى رغبته في تصوير جود الوزير الصاحبي ويده المبسوطة لمعاونة الناس المحتاجين منهم والفقراء.

---

(٥٩) ثمرات الأوراق. ص٣٦٥.
(٦٠) المصدر نفسه. ص٣٦٦.
(٦١) المصدر نفسه. ص٣٦٢.
(٦٢) يعني الوزير أمين الملك.
(٦٣) ثمرات الأوراق. ص٣٦٥.
(٦٤) المصدر نفسه. ص٣٦٦.
(٦٥) ثمرات الأوراق. ص٣٦٧.

لقد صور ابن نُباتة تهافت تلك الفئة من الناس على الوزير في القدس الشريف. فقال: "وشَرَعت صدقات السر والجهر. وقوبل السؤال ببحرٍ لايُسْمَع عنده نَهَر. وغصّ بفقرائهم المكان والطريق. وجاءوا رجالا ونساء. .... فوضع مواضعه النوال. وقُدّرت الكساوي حتى على المستورين والأطفال"(٦٦).

ومثل تلك الصورة رسمها الكاتب لفقراء الرملة إذ قال: " ثم عَطفتنا الأقدارُ إلى جهة الرملة. وجاءت الوفود كالرّمل. وخفت دراهم الصِّلات. وثقُلت أكياسُ الحمل"(٦٧).

وأشار ابن نُباتة إلى مظاهر اجتماعية أخرى. ومنها انتشار طوائف الفقراء المتصوفة في القدس الشريف(٦٨). وذكر أنواعاً من الأطعمة اشتهرت بها بعض المدن الفلسطينية آنذاك. مثل مدينة الخليل التي تميزت بعدسها. وهذا ما عبر عنه إذ قال إبان زيارتها: "وأكلنا من شهيّ عدسه لَوْناً "(٦٩).

كما أشار إلى وجود المغتربين من البلاد الإسلامية في الأقطار الشامية وذلك حين تحدث عن زيارتهم للحَصين يقول: " ووجدنا هناك فقيراً مغربياً حَسَنَ التلاوة وقد عجز عن المسير. .... فأمرتْ له الصدقاتُ الصاحبية بمركوب ونفقة ثمينة على السفر والإقامة وألْحَقَهُ في ذلك بفقير عجمي ينشد لسان حاله: بي مثل مابكِ يا حمامة"(٧٠).

ووصف ابن نُباتة أثر الرحلة في نفوس المرتحلين. وكشف عن عظيم سعادتهم وهنائهم بما شاهدوه فيها. وما فتىء يتحدث عن ذلك الأثر على مدار الرحلة كلها. فبعد أن زاروا مشهد زكريا ويحيى عليهما السلام. وقضوا ليلة بجوارهما. قال معبراً عن أنسهم: وأصبحنا وقد امتلأت القلوبُ سروراً والأعينُ نوراً "(٧١).

ومن ذلك قوله عقب زيارة مشهد معاذ بن جبل: " فأنقذتْ أنوارُه القلوبَ من الهمّ أيّ إنقاذ. وكدنا نُفتَنُ بالأنس حتى نقول: أفتّانٌ أنت يا معاذ ؟" (٧٢).

وغمرتهم مشاعر الفرح والسرور حين وصلوا الغور ثم الخليل. وهذا ما توضحه أقوال ابن نُباتة: " ثم نهضنا عن الغور. . ... وجُزْنا مبتسمين "(٧٣). " وطربنا لتلك المنازل. وكيف لا نَطربُ لها وهي الخليلية! ". " ووجدنا من الهناء ألواناً "(٧٤).

---

(٦٦) المصدر نفسه. ص٣٦٥-٣٦٦.
(٦٧) المصدر نفسه. ص٣٦٨. وانظر حديثه عن أهل عجلون. ص٣٦٢.
(٦٨) انظر المصدر نفسه. ص٣٦٧.
(٦٩) المصدر نفسه. ص٣٦٧.
(٧٠) المصدر نفسه. ص٣٦٢.
(٧١) ثمرات الأوراق. ص٣٦٨.
(٧٢) المصدر نفسه. ص٣٦٩.
(٧٣) المصدر نفسه. ص٣٦٩.
(٧٤) المصدر نفسه. ص٣٦٧.

القسم الثاني: الدّراسة الفنيّة

بناء الرحلة

عُني النّقاد العرب القدامى عناية كبيرة بوحدة العمل الأدبي وتلاحم أجزائه. وصرفوا وقتهم وجهدهم في معالجة هذه القضية. وفي توجيه الأدباء إلى تلك الغاية. فقسموا العمل الأدبي إلى مقدمة. ومطلع. وحسن تخلص. وخاتمة. ووضعوا لكل مصطلح منها شروطا تجعله متّسقاً مع غيره من المصطلحات كي يخرج العمل الأدبي كما يقول ابن الاثير "كأنما أفرغ إفراغاً"(٧٥).

أما المطلع أو حسن الأبتداء. فهو "أنْ يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيِّنةٍ أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده. والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره ليبني كلامه على نسق واحد دلّ عليه من أول وهلة عُلم بها مقصده"(٧٦).

وطلب النقاد إلى الكاتب أن يبدأ بالتحميد. وأن يكرره "ثانية وثالثة". "ثم يذكر الشهادتين ويصلي على محمد. ويقول: أما بعد"(٧٧). وحرصاً منهم على ذلك. فقد أطلقوا على الخطبة التي تخلو من حمد لله "البتراء". ومن الصلاة على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم "الشوهاء"(٧٨).

وطلبوا إليه أيضا أن يدعو للسلطان وأعيان الدولة. وأن يفعل ذلك في الخاتمة. وعدّوه "من محاسن الكتابة"(٧٩).

أما التخلّص. فهو "أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره. وجعل الأول سبباً إليه. فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض. من غير أن يقطع كلامه. ويستأنف كلاماً آخر"(٨٠).

ورأى النقاد أن تناسب الخاتمة موضوع النّص الأدبي(٨١). وأن تتضمن "معنى تاماً يؤذن بأنه الغاية والمقصد والنهاية"(٨٢). وأن يكون "مستعذباً حسناً لتبقى لذته في الأسماع"(٨٣).

راعى ابن نُباتة في رحلته ما اشترطه النقاد. ولذا جاءت عملاً أدبياً متماسك البناء. فقد بدأها بحمد الله وثنّى بالصلاة على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وآله الطاهرين. ثم

---

(٧٥) ابن الأثير. المثل السائر. ٢٤٤/٢.
(٧٦) الحلبي. حسن التوسل. ص٢٥١.
(٧٧) معالم الكتابة. ص٧٢.
(٧٨) انظر الجاحظ. البيان والتبيين. ٦/٢. وانظر ص٧٣.
(٧٩) معالم الكتابة. ص١٠٧.
(٨٠) المثل السائر. ٢٤٤/٢.
(٨١) انظر القرطاجني. منهاج البلغاء. ص٣٠٦.
(٨٢) د. محمد عبد المطلب. اتجاهات النقد. ص١٨٠. انظر د.يوسف بكار. بناء القصيدة. ص٣٠٢.
(٨٣) حسن التوسّل. ص٢٥٥.

ذكر أما بعد. قال: "الحمد لله الحافظ سرّ ملكه بأمينه. ..". "وصلى الله على سيدنا محمد أيّد بالروح الأمين. وعُضّد بوزراء آله وصحبه الغُرّ الميامين. وسلّم عليه وعليهم سلاماً باقياً إلى يوم الدين. أما بعد"[٨٤]. وانتقل بعد ذلك إلى الإشادة بالوزير الأميني ومدحه والدعاء له. وكرّر الدعاء غير مرة في رحلته. وذلك كله اقتضته طبيعة المقام. فهذه الرحلة كانت بصحبة الوزير. وكتبها ابن نُباتة بناءً على طلبه إليه.

ثم راح يتحدث عن دواعي الرحلة. فيوم الانطلاق ووقته. والطبيعة وقتذاك. ثم سرد أسماء الأماكن التي زاروها أو مرو بها واحداً تلو الآخر مراعياً في ذكرها الترتيب المكاني والزماني[٨٥]. وواصفاً مشاهداتهم. وأعمالهم. والحوادث التي جرت معهم هناك.

وخصّص الكاتب الخاتمة للدعاء للوزير. وبدا فيها متأثراً بالقرآن الكريم مما زاد في جمالها ولذتها في أسماع المتلقين. قال: " والله المسؤول أن يجعل في البقاء الصاحبي سلوة عن كلّ فقيد. ... ويرزقنا في شكر نعمة لسانا لفظه ذهب. وذهناً بصرُه حديد"[٨٦].

إن المحاور السابقة جميعها تصب في موضوع واحد وهو الرحلة ومجرياتها. الأمر الذي جعل بناء الرحلة قويا متلاحما. ولكن على الرغم من ذلك فإن هناك عاملا أدى إلى انقطاع السرد أحياناً. وبالتالي إضعاف البناء. وهو أنّ الكاتب ضمّن رحلته أشعاراً من نظمه. ومن نظم شعراء آخرين سبقوه[٨٧]. ولعل العرف النقدي الذي كان سائداً وفي وقته وقبله يغفر له هذا الجانب. فالنقاد العرب القدامى كانوا يعدّون ذلك التضمين " من أحسن الأشياء في الكتابة"[٨٨].

وحققت رحلة ابن نباتة الوحدة العضوية. ذلك أن بناءها قائم على الأسلوب القصصي. وهذا الأسلوب جعل لها بداية وهي دواعي الرحلة ومكان الانطلاق ووقته. وأحداثا متسلسلة حسب التسلسل الزماني والمكاني فالنهاية. وهي عودتهم إلى الديار. الأمر الذي يجعل من الصعب على المرء أنْ يأتي بموضوع مكان موضوع. لأن ذلك سيُحدث في الرحلة تشويها وخللاً. فعلى سبيل المثال لايمكن الحديث عن أعمال المرتحلين في القدس قبل الحديث عن دواعي الرحلة ووقتها. كما لايمكن أن نضع مشاهداتهم في الخليل قبل وصف ما رأوه في عجلون وهكذا.

اللّغة والأسلوب

اهتم النقاد العرب القدامى ومنهم نقاد العصر المملوكي بلغة الأدب عامة. فحثوا الأدباء على الابتعاد عن الألفاظ الغريبة. وحوشي الكلام. وأن يلتزموا اللغة الفصيحة السهلة. فابن

(٨٤) ثمرات الأوراق. ص٥٩.
(٨٥) انظر ذلك تحت عنوان "منهج ابن نباتة في تدوين رحلته".
(٨٦) ثمرات الأوراق. ص٣٧٠.
(٨٧) سيأتي الحديث عن ذلك تحت عنوان "الاتباعية".
(٨٨) معالم الكتابة. ص١٠٧.

شيث القرشي يرى أن العمل الأدبي كله ينبغي أن تكون ألفاظه "أهلية إنسية ولا تكون وحشية ولا منسيّة "[٨٩]. كما يرى أن أكثر الأدباء المطبوعين يميلون إلى الأسلوب السهل "لبعده من الكلفة"[٩٠].

ودعا أولئك النقاد الأديب إلى الملاءمة بين ألفاظه ومعانيه. وبيّنوا أن لكل موضوع أدبي لغته الخاصة به. وأنّ اللغة ينبغي أن تُراعي مقتضى الحال. يقول شهاب الدين محمود الحلبي: "وممّا يتعيّن على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسك به هو إعطاء كل مقام حقه"[٩١].

لم يخرج ابن نُباتة عن هذه المقاييس. فقد جسّدها في أدبه الذي وصل إلينا. ومن هنا أشاد به نقاد عصره. يقول عنه الصفدي تفرّد "بلطف النظم وعذوبة اللفظ. وجودة المعنى. وغرابة المقصد. وجزالة الكلام. وانسجام التركيب. وأما نثره. فإنه الغاية في الفصاحة. "[٩٢].

اتّسمت "حظيرة الأنس" بالفصاحة والسهولة والإيجاز. ولعل هذه السِّمة الأخيرة مردُّها إلى صغر حجم الرحلة وعدد أوراقهاالمحدود. كما اتّسمت بالملاءمة بين الألفاظ والمعاني. فهو حين يمدح الوزير الأميني. ويصف المدن والطرق. يأتي بلغة جزلة فصيحة موجزة. وهذا سبيل المادح. في رأي ابن رشيق وهو " أن يسلك طريقة الإيضاح. والإشادة بذكر الممدوح. وأن يجعل معانيه جزلة. وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية. ويجتنب مع ذلك كلّه التقصير والتجاوز والتطويل"[٩٣]. ومن الأمثلة على ذلك قوله: "فإن الله سبحانه وتعالى. .. جعل لكل دولة قائمة وزيراً قائماً بتدبيرها. مُفَرعاً غصن العلم بتثميرها. مُنَفذاً أمر سلطانها. ومبلّغاً أحكام عدلها وإحسانها. يبني ممالكها على الأسل من أقلامه." [٩٤]. وحين يصف الكاتب حالته النفسية الحزينة. ويرثي ولده عبد الرحيم. فإنه يأتي بالألفاظ السهلة الرقيقة المعبرة عن معاني الأسى والألم. وهذا هو سبيل لغة الرثاء. يقول: " وذلك أني كنتُ لابساً ثياب الحزن على ولدي مقيماً بين المقابر إقامة تفتّ حبة قلبي على قطعة من كبدي. ... "[٩٥].

---

(٨٩) معالم الكتابة. ص٩٣.

(٩٠) المصدر نفسه. ص١٠٣-١٠٤. وانظر ابن طباطبا. عيار الشعر. ص١٢٦. العسكري. الصناعتين. ص١٧٩. ابن رشيق. العمدة. د. عبدة قلقيلة. النقد الأدبي في العصر المملوكي. ص٢٨٦-٢٨٧. د. محمود رزق سليم. عصر سلاطين المماليك ج٤م٣٨١/٨. د. رائد عبد الرحيم. فن الرثاء. ص٣٢١.

(٩١) حسن التوسل. ص٣٣٠. وانظر الجرجاني. الوساطة بين المتنبي وخصومه. ص٣٣. ابن الأثير. المثل السائر. ١٦٨/١. د. إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ص٣٢٢. د. عبد الفتاح عثمان. نظرية الشعر. ص١٢٦. محمد البرازي. في النقد القديم. ص٢٧٢.

(٩٢) الصفدي. الوافي بالوفيات. ٣١١/١-٣١٢. وانظر ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ٧٦/١١. السخاوي. الذيل التام على دول الإسلام. ص٢٢٣. ابن حجر. الدرر الكامنة. ٣٣٩/٤.

(٩٣) العمدة. ١٢٨/٢.

(٩٤) ثمرات الأوراق. ص٣٥٩.

(٩٥) المصدر نفسه. ص٣٦٠. وانظر ص ٣٧٠.

وامتازت لغة "حظيرة الأنس" باستخدام ألفاظ إسلامية. ومصطلحات علمية. وأسماء شخصيات تاريخية. وفنون بديعية متنوعة[٩٦].

أما أسلوب ابن نُباتة في رحلته. فتميّز بميزات عدّة منها

الأثر الإسلامي

حثّ النقاد العرب القدامى الكاتب على التّزوّد بالثقافة الإسلامية. ونصحوه أن يبدأ بـ "حفظ كتاب الله تعالى وإدامة قراءته وملازمة درسه. وتدبّر معانيه. حتى لايزال مصوّراً في فكره. ودائراً على لسانه. ممثّلاً في قلبه. وذاكراً له في كلّ ما يرد عليه من الوقائع التي تحتاج إلى الاستشهاد به فيها. .. وكفى بذلك مُعيناً في قصده. ومُغنياً له عن غيره"[٩٧].

عُرف ابن نُباتة بثقافته الدينية الواسعة. هذه الثقافة صَبغتْ أدبه بصبغتها. ومنه رحلته "حظيرة الأنس". فقد بدأها الكاتب بحمد الله والثناء عليه. ثم بالصلاة على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ووظف فيها حشداً كبيراً من الألفاظ والعبارات الإسلامية منها على سبيل المثال: الأجر. والروح الأمين. ويوم الدين. والكعبة. والطّواف. والرحمة. والصالحون. وجنة الخُلد. ومسجد. ومشهد. وطهارة. ودين. وصلاة. وحسنات[٩٨].

وتظهر الألفاظ الإسلامية في قوله متحدثاً عن الحرم القدسي الشريف: " فتلك نعمة مقيمة. يكافيء الله عنها في دار المقامة. وحسنة في المعنى والصورة جارية إلى يوم القيامة"[٩٩]. ويقول: "وقرعنا أبواب السماء بأدعيةٍ فاتحةٍ. فقال النّجحُ عُقيب الفاتحة آمين"[١٠٠].

أما المعاني الإسلامية. فبرزت في غير وجه منه الأدعية التي ملأ بها ابن نُباتة رحلته. وجلّها أدعية اختص بها الوزير كما يبدو في قوله: "أعلى الله تعالى أبداً شأنه. ورفع على فرق الفرقدين مكانه"[١٠١]. وقوله: " تقبّل الله عمله الصالح. ومتجره الرابح "[١٠٢].

ومن المعاني الإسلامية حديثه عن الأجر الذي سيلقاه فاعل الخير لقاء أعماله التي يبتغي بها وجه الله[١٠٣].

---

(٩٦) سيأتي الحديث عن ذلك في مكانه من هذا البحث.
(٩٧) حسن التوسل. ص٧٣.
(٩٨) انظر ثمرات الأوراق. ص٣٥٨. ٣٥٩. ٣٦١. ٣٦٤. ٣٦٥. ٣٦٧. ٣٦٨. ٣٦٩.
(٩٩) المصدر نفسه. ص٣٦٥.
(١٠٠) المصدر نفسه. ص٣٦٨.
(١٠١) المصدر نفسه. ص٣٥٩.
(١٠٢) المصدر نفسه. ص٣٦٠.
(١٠٣) انظر المصدر نفسه. ص٣٦٧. ٣٦٩.

ويظهر تأثر ابن نُباتة بالقرآن جلياً. ويبدو ذلك في المعاني. والصور. والاقتباس. والقصص.

أما الاقتباس. فقد جاء دعماً وتأكيداً لمعانيه التي عبّر عنها. فهو إذ مدح الوزير الأميني. ووصف تقواه اقتبس قوله تعالى " ما ضَلَّ صاحبُكم وما غوى "(١٠٤).

وعبّر الكاتب عن أثر الرحلة في نفسه. وعن دورها في التخفيف عنه. فاقتبس قوله تعالى: "الحمدُ لله الذي أذهبَ عَنّا الحَزَنَ إنّ ربنّا لغفورٌ شكور"(١٠٥). واقتبس قوله تعالى: "وعلى كلّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميق"(١٠٦) وذلك حين صوّر تَوافُدَ الفقراء من كل حَدَب وصوب. على ممدوحه لينالوا عطاءه.

وبرز تأثره بمعاني القرآن الكريم وصوره في غير موضع في هذه الرحلة. ففي قوله واصفاً عمارة الوزير في القدس الشريف: " فجنينا من تلك المباني بساتين دانية القطوف"(١٠٧). ينظر إلى قوله تعالى في وصف الجنة: "قطوفها دانيةٌ"(١٠٨).

ويتحدث ابن نُباتة عن الثياب التي تصدّق بها ممدوحة على فقراء القدس وأغنيائهم "اتخذ الفقراء والأغنياء من أصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين"(١٠٩). فهو يتأثر بقوله تعالى: " والله جعل لكم من بيوتِكُمْ سكناً وجعل لكم من جلودِ الأنعامِ بيوتاً تستخفّونها يوم ظَعْنِكُم ويوم إقامتِكُمْ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومَتاعاً إلى حين. .." (١١٠).

وصوّر الكاتب مقام معاذ بن جبل. وزيارتهم له. فقال: " وأمسكنا عنده من الدعاء بعروة لا تنفصم "(١١١). فهو يأخذ معانيه من قوله تعالى: "لا إكراه في الدين قد تبيّن الرّشدُ من الغَيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استَمْسك بالعروةِ الوُثقى لا انفصامَ لها والله سميعٌ عليم "(١١٢).

ووشّح الكاتب رحلته ببعض قصص القرآن الكريم. و استفاد من دلالاتها في التعبير عن معانيه. وفي تشكيل صوره. فحين وصف غزارة الأمطار التي نزلت على الصخرة المشرفة. استوحى قصة سيدنا موسى عليه السلام. فقال: " واستمرّت السّحبُ حتى عادت الصخرةُ كحجر موسى تتفجّر منها الأنهارُ "(١١٣).

---

(١٠٤) المصدر نفسه. ص٣٥٩. سورة النجم. آية ٢.
(١٠٥) ثمرات الأوراق. ص٣٦١. سورة فاطر. آية ٣٤.
(١٠٦) المصدر نفسه. ص٣٦٦. سورة الحج. آية ٢٧.
(١٠٧) المصدر نفسه. ص٣٦٥.
(١٠٨) سورة الحاقة. آية ٢٣.
(١٠٩) ثمرات الأوراق. ص٣٦٦.
(١١٠) سورة النحل. آية ٨٠.
(١١١) ثمرات الأوراق. ص٣٦٩.
(١١٢) سورة البقرة. آية ٢٥٦. ولمزيد من الأمثلة انظر ثمرات الأوراق. ص ٣٦٢-٣٦٣.
(١١٣) ثمرات الأوراق. ص٣٦٤.

ووظف قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام والنار إذ زار الخليل. وتحدّث عن الحرم الإبراهيمي فيها "... وقلنا لأنفاس الشوق كوني برداً وسلاماً على إبراهيم "(١١٤).

ويمدح ابن نُباتة الوزير الأميني. ويشيد بأمانته. فيستوحي قصة يوسف عليه السلام وأمانته مع عزيز مصر. فيقول: " والخزائن التي كم قال لها تدبيره. إنّي حفيظٌ عليمٌ. فقال الملك: فإنّك لدينا مكينٌ أمين"(١١٥).

واستحضر كذلك قصة نوح عليه السلام والطوفان إذ قال مصوّراً زيارتهم مشهد معاذ ابن جبل رضي الله عنه " وآوينا من طوفان الذنوب إلى جبل ينجو به مَنْ يعتصم "(١١٦).

وتأثر ابن نُباتة بالمعاني الواردة في بعض الأحاديث النبوية. واستخدم مصطلحات من علم الحديث(١١٧). إلا أن هذا الأثر بدا ضئيلاً قياساً إلى الأثر القرآني. ففي قوله متحدثاً عن المباني التي شادها الوزير في القدس. وعن جمالها وحسن صنعتها: " ولحظنا من الظلال السّيفية جنة نشأتْ. وكذلك الجنة تحت ظِلالِ السيوفِ "(١١٨). يضمّن الحديث النبوي الشريف: "واعلموا أنّ الجنة تحت ظلال السيوف"(١١٩).

ويتجلى تأثر ابن نُباتة بالحديث في قوله: " وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه. .. وكدنا نُفْتَنُ بالأنس حتى نقول: أفتّانٌ أنت يا معاذ ؟" (١٢٠). فهو يستوحي حديث الرسول. صلى الله عليه وسلم. إذ قال عن معاذ حين سمع أنه أطال الصلاة بالناس: " فتّان. فتّان. فتّان. ثلاث مرات"(١٢١).

نقل الكاتب لفظة الفتنة التي وردت في الحديث من معناه الدال على فتنة الناس عن الحق والإسلام. إلى الفتنة بالجمال والروعة بمعنى افتتان الناس بمشهد معاذ وما عليه من هالة وهيبة وجلال.

الأثر التاريخي

دعا النقاد العرب القدامى إلى "مطالعة كتب التواريخ والأخبار "ذلك أنها" توقعه على مفاصل الأمور. وتريه ما جرى لأولئك الصدور من الورود والصّدور"(١٢٢). ولأنها تريه ما

(١١٤) ثمرات الأوراق. ص٣٦٧.
(١١٥) المصدر نفسه. ص٣٦٧. وانظر ٣٦٨.
(١١٦) المصدر نفسه. ص٣٦٩.
(١١٧) سيأتي الحديث عن ذلك تحت عنوان "مصطلحات العلوم"
(١١٨) ثمرات الأوراق. ص٣٦٥.
(١١٩) صحيح البخاري ٨٧٢/٢.
(١٢٠) ثمرات الأوراق. ص٣٦٩.
(١٢١) صحيح البخاري ١٣٨/٢.
(١٢٢) معالم الكتابة. ص٨٩.

استتر عنه من صغير أحوالهم والكبير"(١٢٣). كما تساعده على ربط أحداث الماضي بأحداث الحاضر. وقد برز هذا الأثر بصوره جليه في "حظيرة الأنس". وهو ما أطلق عليه بعض النقاد القدامى التّلميح(١٢٤). ومن مظاهره التي تَجلت في هذه الرّحلة استحضار أسماء شخصيات عربية مشهورة. بقصد الربط بينها وبين ممدوحه الوزير الأميني. كما يبدو في استيحائه اسم الجاحظ وكتابه (البيان والتبيين) ليقرن بينه وبين ممدوحه في البلاغة والفصاحة والقدرة الأدبيّة. يقول: "... وإذا حمل بَنانُه الأدب رَوَيْنا عن ابن بَحْرٍ كتاب بيانه في الفضل وتبيينه"(١٢٥).

ويتحدث الكاتب عن ممدوحه وجوده وكرمه. فيوّظف شخصية حاتم الطّائي ليربط بينهما في هذا المجال. فيقول: "وجاءت الدّراهمُ بعد التفاصيل بالجُمل. وقال جودها لحاتم.."(١٢٦).

ويصوّر ابن نباتة حال المرتحلين عقب مفارقتهم الغور. فيشير إلى قصّة لبيد وجزعه على أخيه أرْبد إذ قال: "وَجُزْنا مبتسمين فما بكينا بكاء لبيد يوم فِراق أرْبد" (١٢٧).

مصطلحات العلوم

يتميّز أسلوب ابن نباتة في "حَظيرة الأنس" بكثرة توظيف المصطلحات العلمية. وهذا أمر أدّى إلى بروز الصنعة أحياناً دون تقديم فائدة تُذكر لنصّه الأدبي. ولعل ذلك مردّه إلى رغبته في مجاراة ذوق عصْره. وعدد من نقاده الذين استحسنوا زرْكشة لغة الأدب بتلك المصطلحات. واستخدامها قانوناً يصدرون عنه في نقد الأدب. وحكمهم على تميُّزه(١٢٨).

استوحى الأديب بعض المصطلحات النّحوية منها "الاسم". و "الفعل". و "الحرف". ويتجلى ذلك في قوله واصفاً مجاوزتهم الغور. وتنسّمهم هواء القدس الشريف: "وانتشقنا من تلقاء طيّبة الاسم أطيب العَرْف. وسلكنا بحرْفِ واديها مستبشرين. فكانت طيبة الاسمِ والفعلِ والحرفِ"(١٢٩).

ويوظّف قاعدة نحويّة مفادها أنّ ترخيم المنادى يُنقصُ الاسم المرخّم بعض حروفه. ويحاول نقض هذه القاعدة. فيبيّن أنّ رخام المسجد الأقصى يزيد في جماله ولا ينقصه. يقول: "وتمّت به" "أي الرخام" في بهجة المكان زيادةٌ تُخالف قول النحاةِ: إن في التّرخيم نقصاً"(١٣٠).

---

(١٢٣) حسن التوسل. ص٨٩.
(١٢٤) انظر المصدر نفسه. ص٢٤٢.
(١٢٥) ثمرات الأوراق. ص ٣٥٩.
(١٢٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٦.
(١٢٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٩ وانظر ص ٣٦٢.
(١٢٨) للتفصيل انظر الصفدي. الوافي. ٣/٣٦٤. السيوطي. بغية الوعاة. ١٣٥/١. د. عبده قلقيلة. النقد الأدبي. ص ٢٨٧. د. هنريت الصانع. اتجاهات الشعر العربي. ص ٤٢٦. د. رائد عبد الرحيم. فن الرثاء. ص ٣٥٣. صورة المغول في الشعر العربي في العصر المملوكي. ص ١٨٣.
(١٢٩) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٩.
(١٣٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٥. ولا يخفى على القارئ ما في لفظة "الترخيم" من تورية.

واستخدم ابن نباتة مصطلحات عروضية مثل "أسباب". و "الوافر". و"المديد" في قوله يمدح الوزير: "ويصل أسبابنا أبداً بتحريره الوافر وظلّه المديد"(١٣١).

وأتى الكاتب بمصطلحات من علم الحديث مثل الرواية والسماع(١٣٢). كما أتى بمصطلحات صوفية حين تحدّث عن اهتمام الوزير بالمتصوفة في القدس الشريف ومنها الفقراء والمريد(١٣٣). وتطرّق إلى بعض أفكارهم. كما يبدو في قوله واصفاً النشوة الروحية التي شعر بها المرتحلون إبّان دخولهم إلى الحرم القدسي: "وصِرْنا من الصالحين عند زيارة الأقصى فمشينا على الماء"(١٣٤). ولا شك أن هذه الأفكار تحملها مصطلحات خاصة بأهل التصوف.

الاتّباعية

حثَّ النقاد العرب القدامى الأدباء على الوقوف على كلام المتقدمين ومعانيهم. وجعلوا ذلك وسيلة من وسائل البلاغة. والتمكّن فيها(١٣٥). يقول ابن شيث القرشي ناصحاً الأديب إبّان حديثه عن الزّاد الثقافي الذي ينبغي عليه أن يتزوّد به: "وليتأمّل المعاني التي عُني بها الكتّاب وعانوها. فإنها تُعينه. ويغزرُ بها في الكتابة معينه. والحفظ في ذلك ملاكُ الأمر. فإنّه يؤهّل ويدرِّبُ وَيُسهّل المطلوب ويقرّب"(١٣٦). ورأى النّقاد أيضاً أن على الأدباء إذا وظّفوا معاني سابقيهم أن "يكسوها ألفاظاً من عندهم. ويبرزوها في معارض من تأليفهم. ويوردوها في غير حِليتها الأولى. ويزيدوها في حسن تأليفها. وجودة تركيبها. وكمال حليتها. ومعرضها"(١٣٧).

تعكس "حظيرة الأنس" اهتمام ابن نباتة بالموروث الأدبي والثقافي. ومن مظاهره فيها التضمين. وحلّ المنظوم. والأمثال.

دعا النقاد العرب القدامى الكتّاب إلى تضمين الأبيات الشعرية في كتاباتهم. ورأوا فيها حلية وجمالاً وحُسناً إذا ما أوردها الكاتب في موضعها الصحيح من النّص(١٣٨). وقد شاع التضمين في فنون النثر العربي القديم. ومنها أدب الرّحلات. وهذا ما عبّر عنه د. حسين نصّار إذ قال: "ولعلّي لا أخطئ إذا زَعَمْتُ أنّ جميع كتّاب الرّحلات عدّوا تضمين الأشعار تأكيداً لكلامهم. وحلية لأسلوبهم"(١٣٩).

---

(١٣١) المصدر نفسه. ص ٣٧٠.
(١٣٢) انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٥.
(١٣٣) انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٦.
(١٣٤) المصدر نفسه. ٣٦٤.
(١٣٥) انظر معالم الكتابة. ص ٨٩.
(١٣٦) معالم الكتابة. ص٤٠. وللتفصيل انظر حسن التوسل. ص٨٩. نظرية الشعر. ص٧٩. د. بدوي طبانة. السرقات الأدبية. ص٥١.
(١٣٧) العسكري. الصناعتين. ص ٢١٨. انظر ابن وكيع. المنصف ١٠٢/١٢. ابن حجة. خزانة الأدب ٢٦٠/٢. د. بدوي طبانة. أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية. ص ١٧٢. السرقات الأدبية. ص ١٨٧.
(١٣٨) انظر معالم الكتابة. ص ١٠٥. ص ١٣٨.
(١٣٩) أدبيات أدب الرحلة. ص ١٢٧.

أما حلّ المنظوم. فقد اهتمّ به أولئك النّقاد. ووضعوا له قواعد وشروطاً. وعدّه بعضهم أساس الكتابة وجوهرها. وهذا ما ذكره وعلّله ابن شيث القرشي فقال: "قال الحذّاق من أهل هذه الصّناعة: إنّ الكتابة هي حلّ المنظوم من الشعر. إذ معاني الشعر قد استخدمت لها الألفاظ كلّها العناية الخاصة بها. فإذا كان الكاتب ماهراً نظر إلى المعنى الذي يقصده من الأشعار فحلّ نظامه. وحلّى به كلامه"(١٤٠).

ورأى نقاد آخرون أنّ على الأديب التقليل من حلّ المنظوم في نثره. وإذا استخدمه أن يكون ذلك عفو الخاطر لا تصنّع ولا تكلف فيه. وهذا ما يبدو في قول شهاب الدين محمود الحلبي يوجّه الكاتب: "ولا ينبغي أن تعتمد في جميع كتابتك على الحلّ فيتكئ خاطرك على ذلك. ويذهب رونق الطبع السليم. وتقلّ مادة الانسجام. بل يكون استعمال ذلك كاستعمال البديع إذا أتى عفواً من غير تكلف ليكون مثل الشاهد على صحّة الكلام. والدّال على الاطلاع كالرّقم في الثوب. والشذرة في القلادة. والواسطة في العقد. إذ لا ينبغي أن تخلي كلامك من نوع من أنواع المحاسن"(١٤١).

ويرى الحلبي أيضاً أن على الكاتب إذا "هدم البيت المنظوم" أن يبرزه في "أحسن سلك وأجمل قالب. وأصحّ سبك". وأن يكمله بما يناسبه "من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة". "وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء. فإنْ كان نسيباً. وتأتّى له أنْ يجعله مديحاً فليفعل. وكذلك غيره من الأنواع"(١٤٢).

وقد شاعت ظاهرة الاحتذاء بين الأدباء في العصر المملوكي. فعني الكتاب بتضمين أشعار منْ سبقوهم وبحلّها في كتاباتهم النثرية. وبخاصة شعر المتنبي. وهذا ما عبر عنه الحلبي في قوله: "وكثر الاستشهاد بشعره "أي المتنبي". حتى قلّ مَنْ يجهله. وحتى اكْتُفي بالبيت الواحد من شعره في الدلالة على المقصد أو بلوغ الغرض في الجواب"(١٤٣). وعلّل ذلك الإقبال بقوله: إنّ شعر المتنبي قريب "من أسلوب الخطابة والكتابة". وإنّه "ينطق عن ألسنة الناس في محاوراتهم"(١٤٤).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ النقاد والأدباء في العصر المملوكي كانوا منقسمين إلى فريقين: فريق يقدّم أبا تمّام. وآخر يقدّم المتنبي(١٤٥). وكان ابن نباتة ممّن يُقدّمون المتنبي ويهتمون بشعره(١٤٦). وتجلّى ذلك في أدبه عامة ومنه حظيرة الأنس إذ استفاد منه فيها. فأكثر من تضمينه

---

(١٤٠) معالم الكتابة. ص ٩٦
(١٤١) حسن التوسل. ص ٣٢٩.
(١٤٢) المصدر نفسه. ص ٣٢٥. ٣٢٦. ٣٢٨.
(١٤٣) المصدر نفسه. ص ٩٣.
(١٤٤) المصدر نفسه. ص ٩٣.
(١٤٥) للتفصيل انظر فن الرثاء. ص ٣٦٤.
(١٤٦) انظر ابن حجة. خزانة الأدب. ٢٠٧/١-٢٠٨. ثمرات الأوراق. ص ٤٨. فن الرثاء. ص ٣٦٤.

وحلّه في المواضع التي تلائم أفكاره. وتخدم صوره ومعانيه. ومن أمثلة التضمين أنه حين وصف جمال الطبيعة في فصل الربيع برفقة الوزير استوحى قول المتنبي: (١٤٧)

لقَد حَسُنتْ بكِ الأيامُ حتى　　　كأنّكَ في فمِ الدّهرِ ابْتسامُ

ويتحدث عن مدة إقامتهم في القدس الشريف. وهي ثلاثة أيام. ويعبّر عن رغبتهم النفسية في أن تتجاوز إقامتهم تلك المُدّة. فيضمن شاهداً نحوياً مشهوراً: (١٤٨)

خرجْنا على أنّ المقامَ ثلاثةٌ　　　فطابَ لنا حتّى أقمْنا بها عَشْرا

ويشيد الكاتب بالمباني التي أقامها الوزير الأميني في القدس الشريف. ويكشف عن دورها في رعاية اليتامى والأرامل. فيضمّن عجز بيت لأبي طالب يمثل ذلك الدّور. ويلائم ذلك الموقف: (١٤٩)

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجههِ　　　ثمالُ اليتامى عصمْةٌ للأراملِ

وجاء التضمين في قول ابن نباتة: "... ورباط ومكتب هما كما قيل: ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل"(١٥٠).

وحلّ ابن نباتة أبياتاً من شعْر المتنبي. وأتى ذلك عفو الخاطر من غير تكّلف أو تصنع. فأضفى جمالاً على نصّه. وزاد من جماله أنه جاء ملائماً لأفكاره ومعانيه وصوره التي عرضها في رحلته. فمن ذلك قوله يمدح الوزير. ويصف قدرته على الكتابة: "وتنبّه قلمُه ونامتْ ملء أجفانها السيوفُ" فهو ينثر قول المتنبي. وينقله من الفخر إلى المديح: (١٥١)

أنامُ ملءَ جُفوني عن شواردها　　　ويَسْهرُ الخَلْقُ جرّاها ويَخْتصمُ

ويعبّر عن حبّ المرتحلين للأماكن التي مروّ بها. فيقول: "وقطعنا بالكِسْوة ليلاً طائلاً نداؤه: كل ليل للعاشقين طويل"(١٥٢). فهو يهدم قول المتنبي: (١٥٣)

ليالِيّ بَعْدَ الظاعنينَ شكولُ　　　طويلٌ وليلُ العاشقين طويلُ

أما المثل. فقد عَدّ النّقاد العرب القُدامى التمثل به "في موضعه من أحسن أنواع الكتابة. وأعظم فنونها"(١٥٤). وحثوا الأديب على "النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نظماً ونثراً"(١٥٥).

---

(١٤٧) ثمرات الأوراق. ص ٣٦١. اليازجي. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب. ص ١٠٠.
(١٤٨) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٨.
(١٤٩) الجرجاني. دلائل الإعجاز. ص ١٤.
(١٥٠) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٠.
(١٥١) العرف الطيب. ص ٣٤٣.
(١٥٢) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٩.
(١٥٣) العرف الطيب. ص ٣٩٦.
(١٥٤) معالم الكتابة. ص ١٣٨. وانظر ص ١٠٩. حسن التوسل. ص ٩٧.
(١٥٥) حسن التوسل. ص ٩٦.

لم تبرز الأمثال بصورة جليّة في "حظيرة الأنس". واكتفى ابن نباتة بإيراد مثلين. ويبدو ذلك في حديثه عن جود ممدوحه الذي فاض عن حاجة سائليه: ".... وقال جودها لحاتم: هذه التي لا ناقة لك فيها ولا جَمل"[١٥٦]. وفي حديثه عن وصولهم الخليل "وَحَمدْنا عند صباح ذلك الوجه السُّرى"[١٥٧] يستوحي المثل القائل: "عند الصباح يحمد المرء السُّرى"[١٥٨].

الفنون البديعية

اهتمّ نقاد العصر المملوكي وأدباؤه بالبديع. فغزت أنواعه الموضوعات الشعريّة والنثرية المختلفة. وبلغ استخدامها حدّ الإسراف والغلو في أحيان كثيرة. وظهرت في فنونه مذاهب. دعا روّادها إلى ضرب أو أكثر من ضروبه. ودافعوا عنها. ومن المذاهب التي ظهرت وقتذاك مذهبا التورية والجناس[١٥٩].

وتتجلى عنايتهم بالبديع في ذلك العدد الضخم من الكتب التي أُلفت فيه. وفي تنافس النقاد في توليد أنواعه وتنميتها. وبعض تلك الكتب وصل إلينا. وبعضها الآخر ضاع أو ما زال محفوظاً في خزائن المخطوطات حول العالم.

ومن الكتب المنشورة كتابا الصفدي "جنان الجناس". و "فضّ الختام عن التورية والاستخدام". وكتابا ابن حجة الحموي "كشف اللثام عن التورية والاستخدام", و "خزانة الأدب وغاية الأرب". وكتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" لشهاب الدين محمود الحلبي. و "جنى الجناس" للسيوطي. هذا فضلاً عن قصائد البديعيات[١٦٠] وشرحها. ومنها "نتائج الألمعيّة في مدح خير البرية" لصفي الدين الحلي. و "الحلة السيرا في مدح خير الورى" لابن جابر الأندلسي.

أما الكتب التي ضاعت أو لم تُنشر بَعْدُ. فكثيرة. ومنها كتاب "الترصيع في علم البديع"[١٦١]. لبرهان الدين الرّبعي ت ٧٣٢هـ. و "وروضة المجالس في بديع المجانسة"[١٦٢] لشمس الدين النواجي ت ٨٥٩. وكتاب "زهر الربيع"[١٦٣] لجمال الدين بن ريّان ت ٧٦٩هـ أو ٧٧٠هـ. و "إحكام التأسيس في أحكام التجنيس". و"الإضاءات والإنارات في البديع" المسمى

(١٥٦) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٦. وانظر المثل في العاملي. الكشكول. ٤٤٧/٢.
(١٥٧) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٧.
(١٥٨) الكشكول. ٣٤٥/١.
(١٥٩) للتفصيل انظر فن الرثاء. ص ٣٧٥-٣٧٩.
(١٦٠) هي قصائد "طويلة في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم. على بحر البسيط. وروى الميم المكسورة. يتضمّن كل بيت من أبياتها نوعاً من أنواع البديع. يكون هذا البيت شاهداً عليه. وربما ورّي باسم النوع البديعي في البيت نفسه. في بعض القصائد". علي أبو زيد. البديعيات في الأدب العربي. ص ٤٦.
(١٦١) الصفدي. أعيان العصر. ١٠٥/١.
(١٦٢) السيوطي. حسن المحاضرة. ٤٦٧/١.
(١٦٣) الصفدي. الوافي. ٣٦٩/١٢. .

"بـإيراد المرتـع المريـع لرائـد التسجيع والترصـيع"[١٦٤]. ومؤلفهمـا محمـد بـن عمـر الفهـري ت ٧٢١هـ.

وبلغ الأمر ببعضهم أن وضع مؤلّفاً يشرح فيه البديع الوارد في بيتين من الشعر. وهذا ما أورده الصفدي إذ قال معقباً على شعر كتبه أبو جَلَنْك الشاعر ت ٦٦٠هـ على بستان قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان: [١٦٥]

عُـجْنا ببستانٍ حَلَلْنا دَوْحَهُ ... فـي جنةٍ قـدْ فُتّحتْ أبْوابُـها

والبانُ تَحْسَبُها سنانيرَ رَأتْ ... قاضي القضاة فنَفشتْ أذنابها

"قلتُ: بلغني أن الشيخ بدر الدين بن محمد بن مالك وضع على هذين البيتين كُرّاسة في البديع".

ويُعدّ ابن نباتة أحد أقطاب البديع في عصره. وبلغ إعجابه بأدب القاضي الفاضل أن ألّف كتاب "الفاضل من إنشاء الفاضل". وأفرد في كتابه مطلع الفوائد باباً كبيراً لأدبه[١٦٦]. وكان أيضاً رائداً من روّاد مذهب التورية وقتذاك. فقد كان يدافع عنه. ويكثر من استخدامها في أدبه. وفي الوقت نفسه كان يبغض فن الجناس. ويهاجم روّاده. يذكر أنه كان يعيب على الصفدي[١٦٧] افتتانه به. وأنّه لما اطلع على كتابه "جنان الجناس" قرأه "جنان الخناس"[١٦٨]. فجرى بينهما بسبب ذلك. كما يروي ابن حجة. ما يطول شرحه[١٦٩].

وإذا نظرنا إلى "حظيرة الأنس" نجد أنّ الأديب قد أكثر من استخدام الفنون البديعية فيها مثل السّجع والجناس والطباق والتورية.

أما السّجع. فهو أكثر فنّ بديعي بروزاً في هذه الرحلة. ولهذا النوع دور في إبراز الموسيقى الداخلية في النّص النثري لأنه يقوم فيه مقام القافية في الشعر. فيوفر العنصر الموسيقي الذي توفره القافية. وقد ميز النّقاد بين نوعين من السّجع:

---

(١٦٤) ابن القاضي. درّة الحجال. ٩٧/١.

(١٦٥) الصفدي. أعيان العصر. ١٩٢/١. الغيث المسجم. ٤٧/١. ابن العجمي. كنوز الذهب. ٢٩٨/١ العاملي. الكشكول ٤٢٦/٢ ولمزيد من التفصيل حول البديع في العصر المملوكي انظر ابن خلدون. المقدمة. ١٣٢٠/٣. عصر سلاطين المماليك. ص ١٥/٤. النقد الأدبي في العصر المملوكي. ص ٤٢٢. د. أحمد الهيب. الجانب البديعي في شعر ابن الوردي. ص ٨. د. عبد الجليل عبد المهدى. بيت المقدس. ٢٩٤. فن الرثاء. ص ٣٧٤. وأبو جلنك هو أحد شعراء الموصل المشهورين , خرج لقتال المغول حين احتلوا الموصل سنة ٦٦٠ هـ , فقتلوه. انظر النجوم الزاهرة , حوادث سنة ٦٦٠هـ.

(١٦٦) انظر مطلع الفوائد . ص ٤١٤-٤٥٠. الدرر الكامنة. ٣٤٠/٤.

(١٦٧) انظر أعيان العصر ٦٧٧/١-٦٧٨. فض الختام. ١٢٤-١٣٢. كشف اللثام. ص ٤. ٥٨. ٨٥. ٨٦. خزانة الأدب. ١٢٢/١-١٢٣-١٢٧ مطالع البدور. ٩٠/١.

(١٦٨) أي الشياطين.

(١٦٩) انظر خزانة الأدب. ٥٦/١.

النّوع الأول: فقراته قصيرة. وهذا هو المحبب إلى نفوسهم لأنّه يدلّ "على قوّة التمكّن وإحكام الصنعة"[١٧٠]. وتلتذّ به أسماع المتلقين لأنّ تقارب أجزائه يزيد من بروز الموسيقى. وهذا الضّرب بدا بصورة قليلة في "حظيرة الأنس". ومنه قوله: "وأصبحنا وقد امتلأت القلوب سروراً. والأعين نوراً. وقوينا على قصد جنى الجنان. واسقبلنا محاسن بيسان"[١٧١]. ومثله قوله متحدثاً عن عجلون" ثم نزلنا بالخيام في مرجتها الخضراء. تحت قلعتها الغرّاء. "[١٧٢].

النوع الثاني: فقراته متباعدة. وهذا النوع كرهه النّقاد العرب القدامى. ونهوا عنه "لئلا يبعد عن السّامع وجود القافية. فيقلّ الالتذاذ بسماعها"[١٧٣].

وقد شاع هذا النوع في رحلة ابن نباتة. ومردّ ذلك إلى أنّ حالته النفسية آنذاك دفعته إلى استخدامه. وهذا ما عبّر عنه إذ قال مخاطباً قرّاءه. ومن اعتادوا على تذوّق فنّه: "فكثرتْ على هذا اللفظ المسجوع". "وقد علم الله أنّ هذه النبذة من القول وردتْ على قريحة مسّها فَقْدُ الولد بقرح وأيّ قرح!. وقال بفكرها الذي كان حائك الكلام. لست اليوم من ذلك الطرح. فليبسط الواقف على هذه الرحلة عذري. ويعلم في كونها ليست من عادة نظمي ونثري"[١٧٤]. ومن الأمثلة على ذلك. وهي كثيرة. قوله: "ومن المباني المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره. وأبقاه سيفاً يقف كلّ ذي قدر عند حدّه فلا يجاوز مقداره"[١٧٥]. ومن ذلك قوله: "وسلكنا جانب الغور الممطور فأعْجَبَنا ريّا ورُواء. وكنّا نظنُّ الماء فيه غوراً فوجدنا الغور ماء. وخضنا في حديثه وخاضت الخيل. وتركنا عقباته كالمعلّقة ومِلْنَا إلى السهل كل الميل. وتلقينا كلّ ذي قصد يُبَشِّر بالصباح ولم نقل أهلك والليل.[١٧٦]

ويأتي الجناس في المرتبة الثانية بعد السّجع في هذه الرحلة. على الرغم من أن الكاتب كان يبغضه ويهاجم الدّاعين له. وقد أكثر من استخدام الجناس الناقص الذي جاء في قسم كبير منه متكلفاً ومقحماً على النّص. فيما جاء قسمه الآخر مُنْسجماً مع النّص غير متكلف مما زاد في جمال لغته وبروز الموسيقى الداخلية فيه. وبالتالي التذاذ آذان سامعيه عند تلقيهم له. ومن أمثلة هذا النوع قوله: "الحمد لله الحافظ سرّ ملكه بأمينه. وحامي حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنياه ودينه"[١٧٧]. فالجناس جاء في "حامي". و "حماه". و "دنياه". و "دينه".

ومثله قوله متحدّثاً عن وصولهم القدس الشريف: "وخَفّ بنا جناحُ السَّوق والشَّوق حتى دَنَت الخيامُ من الخيام"[١٧٨]. برز الجناس في لفظتي "السَّوق" و "الشَّوق". ويتجلى ذلك في

---

(١٧٠) حسن التوسل. ص ٢١٣.
(١٧١) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٨.
(١٧٢) المصدر نفسه. ص ٣٦٢.
(١٧٣) حسن التوسل. ص ٢١٣. معالم الكتابة. ص ٩٢-٩٣. وانظر الباقلاني. إعجاز القرآن. ص ١٠٩.
(١٧٤) ثمرات الأوراق. ص ٣٧٠.
(١٧٥) المصدر نفسه. ص ٣٦٥.
(١٧٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٣.
(١٧٧) المصدر نفسه. ص ٣٥٨ – ٣٥٩.
(١٧٨) المصدر نفسه. ص ٣٦٤.

لفظتي "الصالح" و"الطالح" في قوله متحدثاً عن أفعال الوزير في عجلون: ".. فنظر في المصالح. وميّز بالعدل بين الصّالح والطالح"[١٧٩]. يلاحظ هنا أن هاتين اللفظتين جاءتا متجانستين ومتضادتين. فاكتمل بذلك الحسن والجمال.

أما الجناس المتكلف الثقيل على آذان المتلقين. فبدا في قوله واصفاً الرُّواق الذي بناه الوزير على سطح الزاوية الصاحبية بباب الحرم: "واطّرد ماءُ رونقها فكأنّ العين منها في ماء وفيء. ويا له رواقاً شاق وصفه وراق. ورفع محله فقال لسان المتصوّف: حبّذا رفاعيّ الرُّواق"[١٨٠]. هذا المثال صورة واضحة ينطق عن الجهد الذي بذله الكاتب للإتيان بالألفاظ التي تجانس لفظة "روق". ولو أنّه تخلّى عن ذلك وأطلق سجيته لكان خيراً لعمله الأدبي.

ومنه ما جاء في لفظتي "الخليلية" و "الجليلية" في قوله: "وقد قدِمْنا نقصد الخليل صلوات الله عليه بالنيّة الجليلية. وطربنا لتلك المنازل. وكيف لا نطربُ لها وهي الخليلية"[١٨١].

أما الطّباق. فيأتي في المرتبة الثالثة بعد السّجع والجناس. وقد جاء في معظمه عفو الخاطر غير متكلّف. وله "فائدة كبيرة في جذب انتباه السامعين لما ينتج عنه من أخيلة وصور شعريّة. فالمتلقي لا يلبث أنْ ينتقل من صورة أو معنى معين إلى صورة ومعنى مضادّ له. ولهذا كان له علاقة وثيقة ببلاغة الكلام"[١٨٢]. ويساعد كذلك على إيجاز الكلام بدل الإطناب فيه.

وأمثلته كثيرة في هذه الرحلة. منها قول ابن نباتة مصوراً أفعال الوزير في القدس. "وشَرَعتْ صدقاتُ السرّ والجهر"[١٨٣]. ويمتزج الطباق بجمال الصورة الفنيّة في قوله: "وبِتْنا ليلةً طيبة نُحييها ونميتُ النوم"[١٨٤].

ويتجلى الطّباق الجميل في لفظتي "عمارة" و "اندثار" إذ قال معبّراً عما فعله الوزير بمسجد الرّكني في الرّملة: "فأمر مولانا الصّاحب بعمارة ما منه اندثر"[١٨٥].

وتكلف ابن نباتة أحياناً في توظيف الطّباق كما يبدو في قوله: "ونَثَرْنا على مواطئ القدم دموعاً عزّت ولا نقول هانت"[١٨٦]. إنّ لفظة "هانت" تبدو مقحمة في النص. ما جاء بها الكاتب إلا لتطابق لفظة "عزّتْ".

ومثله قوله مطابقاً بين لفظتي "الصّباح" و"السُّرى": "وَحَمدنا عند صباح ذلك الوجه السُّرى"[١٨٧].

(١٧٩) المصدر نفسه. ص ٣٦٣.
(١٨٠) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٣.
(١٨١) المصدر نفسه. ص ٣٦٧. ولمزيد من الأمثلة انظر ٣٦٢-٣٦٣.
(١٨٢) أحمد موسى. الصبغ البديعي. ص ٤٧١.
(١٨٣) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٥.
(١٨٤) المصدر نفسه. ص ٣٦٨.
(١٨٥) المصدر نفسه. ص ٣٦٨. ولمزيد من الأمثلة انظر. ص ٣٦٢. ٣٦٣. ٣٦٤. ٣٦٥. ٣٦٦-. ٣٦٧. ٣٧٠.
(١٨٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٤.
(١٨٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٧.

أما التورية. التي كان ابن نباتة أحد روّادها. فإنّنا لا نجدها الفَنّ البديعي الصارخ في هذه الرحلة. وإنّما نجدها أقل الأنواع البديعية استخداماً. وتعليل ذلك أنّ الكاتب كان يعاني الحزن والألم على فَقْدِ ولده عبد الرحيم. والتورية بحاجة إلى ذهن متوقد مبتكر يظهر قدرة على التلاعب بها. لا إلى ذهن مسّه القرح وأودى به فقدُ الولد.

ومن الأمثلة عليها قوله متحدثاً عن أحد رفاق السفر واسمه الخُلْد: "شكا قوم عشرة هذا الرجل فكتبتُ على ورقتهم: اصبروا على ما يفعلون "وذوقوا عذاب الخُلد بما كنتم تعملون"(١٨٨). جاءت التورية في الآية القرآنية في لفظة الخُلد. فالمعنى القريب لها الخلود في النار لوجود شيء من لوازمه "عذاب". أما البعيد. وهو المقصود. فهو عذاب ذلك الرجل الذي يُدعى الخُلد. وعذابه هنا ناتج عن سوء خُلُقه وعشرته.

وتجلّت التورية في حديث ابن نباتة عن سخاء الوزير: "وقوبلَ السؤال ببحر لا يُسمَعُ عنده نَهَر"(١٨٩). وردتّ التورية في لفظة "نهر". فالمعنى القريب لها "النهر" المعروف لوجود شيء من لوازمه وهو "البحر". أما المعنى البعيد. وهو المُراد. فتعني الإعراض والصدود.

والمعنى الإجمالي هو أنّ طلبات المحتاجين كان ممدوحه يلبيها دون إبطاء أو اعتراض. ومن التورية ما جاء في قوله يمدح الوزير: "وزان بأقلامه أقاليم مصر. فهذه سهام. وهذه كنانة"(١٩٠). برزت التورية في لفظة "كنانة". فالمعنى القريب لها جَعبة السهام لوجود شيء من لوازمه وهو "سهام". ولكنّ المعنى البعيد المقصود. فهو أقاليم مصر. التي يُطلق عليها أرض الكنانة.

الصورة الفنيّة

اهتمّ ابن نُباتة اهتماماً كبيراً بالصوّرة الفنية. مما جعل رحلته عملاً أدبياً مميّزاً. يفوق غيره من الأعمال المتعلقة بأدب الرحلات في هذا المجال. وقد اعتمد في تشكيل صوره على التشخيص. مستخدماً ضروب علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية. وهذه الأنواع تهدف إلى الإيضاح "إذ ترى الجماد ناطقاً. والأعجم فصيحاً. والأجسام الخُرس مبينة. والمعاني الخفيّة بادية جليّة"(١٩١). واستمد الكاتب عناصر صوره الفنية من الطبيعة والواقع ومظاهر الحضارة والمجتمع. ومن القرآن والتراث(١٩٢).

اتكأ الأديب على الطبيعة المتحركة والصامتة في إنتاج صوره. وكانت الأخيرة أي الصامتة أكثر المصادر التي استقى منها صوره. والأمثلة عليها كثيرة. فمن ذلك تصويره ممدوحه بالبحر

(١٨٨) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٤.
(١٨٩) المصدر نفسه. ص ٣٦٥.
(١٩٠) المصدر نفسه. ٣٥٩-٣٦٠. ولمزيد من الأمثلة انظر ص ٣٦١. ٣٦٢.
(١٩١) الجرجاني. أسرار البلاغة. ص ٣٣. وانظر العمدة. ٢٨٧/١.
(١٩٢) جاء الحديث عن ذلك تحت عنوان "الأثر الإسلامي". وعنوان "الأثر التاريخي".

في جوده وكرمه(١٩٣). والوافدين إليه بالرمل لكثرة أعدادهم(١٩٤). ويتحدث الأديب عن الوزير وعنايته بالدولة المملوكية. فيستوحي عنصر الأزهار فيقول: "ويحوط أطرافها إحاطة الزّهر بكمامه"(١٩٥).

ويشخص ابن نباتة الأفق. فيجعله شخصاً يستيقظ من مرقده وهو الغمام ليعبّر عن انحسار الظلام وطلوع الفجر. وهي مدة إقامتهم في الحرم القدسي. يقول: "ومكثنا في البيوت إلى أنْ صحا الأفقُ من مدامة غمامه. وحَسَر عن وجهه للأبصار فَضَل لثامه"(١٩٦). وفي موضع آخر من رحلته يصوّر الرّكب العائدين إلى دمشق تحت جنح الظلام بالنجوم السائرات ليلاً. كما يتجلى في قوله: "سائرين سُرى النجوم في الليل"(١٩٧).

ويعبّر عن حزنه على ولده عبد الرحيم. فيصورّه. أي حزنه. روضة تسقيها دموعه الغزيرة غزارة ماء الغمام. فيقول: "ساقياً روض الحزن بغمائم الجفون"(١٩٨).

أما الطبيعة المتحركة. فاستوحى صوره منها إذ صوّر المرتحلين وسرعة مغادرتهم الغور بالليث حين يُسرع بالإنقضاض على فريسته. قال: "ثمّ نهضنا عن الغور نهوض ليثه الملبّد"(١٩٩). وصوّر نساء دمشق لجمالهن بالظباء إذ أشار إلى عطايا الوزير لهنّ فقال: "ولا ظبية من ظبيات دمشق إلاّ والمكارم تُوَاليها وتُوليها"(٢٠٠).

واستعان ابن نباتة بمظاهر حضارية لينتج صوره. فهو إذ تحدَّث عن حسن تدبير ممدوحه صوّر الممالك فتاة جميلة تمدّ جيدها له. فيزينها بأنواع الحلي والعقود. يقول: "وإذا امتدت إليه أجياد الممالك حلاها من عقد تدبيره بثمينة"(٢٠١). ويصوّر الكاتب حسن صنعة قلعة عجلون ورفعتها. فيجعل النجوم عقوداً والقلعة واسطتها. وهذا ما يوضحه قوله: "... مضيئة بين الأنجم كأنّ درّتها اليتيمة"(٢٠٢).

وبرز الرمز بصورة جلية في "حظيرة الأنس". ولكنه لم يبلغ مرتبة الاستعارة والتشبيه. ومن أمثلته قوله واصفاً أساه على ولده: "وذلك أنّي كنتُ لابساً ثياب الحزن على ولدي"(٢٠٣). فثياب الحزن صورة رمزية لمعاناته الشديدة.

---

(١٩٣) انظر ثمرات الأوراق. ص ٣٦٥.
(١٩٤) انظر المصدر نفسه. ص ٣٦٨.
(١٩٥) المصدر نفسه. ص ٢٥٩.
(١٩٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٤.
(١٩٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.
(١٩٨) المصدر نفسه. ص ٣٦٠.
(١٩٩) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٩.
(٢٠٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٣.
(٢٠١) المصدر نفسه. ص ٣٥٩.
(٢٠٢) المصدر نفسه. ص ٣٦٣.
(٢٠٣) المصدر نفسه. ص ٣٦٠.

وامتزج الرمز بالتشخيص حين شرع في وصف الرحلة ووقتها. كما يبدو في قوله متحدثاً عن فصل الربيع. وما فيه من خضرة وزهور. وعن سعادتهم وقت وصول الكُسْوة: "والأرض قد شَرَعَتْ في لباس حَلْيها وحُللها"[(٢٠٤)] "فأتينا الكُسْوة فلبسنا منها للمسرّة ثياباً سابغة الدّيول"[(٢٠٥)].

ويعبّر بصورة رمزية عن لحظة وصولهم إلى الحرم القدسي. وما واكبه من انهمار للأمطار الغزيرة. فيقول: "وألقينا ببابه عصا السفر. وألقتْ هناك رحالها ركائبُ المطر"[(٢٠٦)]. ويتضح الرمز إذ وصف قلعة عجلون وتحدث عن علوّها. وإحاطتها بالخيل. فقال: "..جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين"[(٢٠٧)].

اتسمت الصّور الفنيّة في "حظيرة الأنس" بعدّة سمات منها الواقعية. وهذا أمر طبيعي في رحلة استقت معلوماتها. وشكّلت صورها من واقع الأماكن والمدن التي زاروها. والأحداث التي عايشوها. والرحلة من بدايتها إلى نهايتها تنطق بهذه السّمة.

وتميزّت صوره باستخدامه عنصر اللّون في تشكيلها. ولذا شاعت في رحلته الألفاظ والعبارات الدالة عليه مثل "الزهر"[(٢٠٨)]. و "الأقمار"[(٢٠٩)]. و "التبر"[(٢١٠)]. و "روض"[(٢١١)]. و "الجين وعقيان"[(٢١٢)]. و"التوشيع والتفويف"[(٢١٣)]. و"صباح"[(٢١٤)]. و "خمرة الصبح"[(٢١٥)]. و"درّة الصبح"[(٢١٦)]. و "ليلة"[(٢١٧)]. و "وشي البديع"[(٢١٨)]. و "سرى النجوم في الليل"[(٢١٩)]. والخضراء[(٢٢٠)]. وغير ذلك من الألفاظ والعبارات التي وظّفها للتعبير عن جمال الطبيعة والأرض وأوقات التنقل. ومدّة الإقامة.

واتّسمت صوره بأنها جاءت عامرة بالحركة. فكثرت فيها الألفاظ والعبارات المعبّرة عن ذلك. وهذه السمة طبيعية أيضاً في رحلة تعتمد في بنائها على التنقل من مكان إلى آخر. ومن

---

(٢٠٤) المصدر نفسه. ٣٦١.
(٢٠٥) المصدر نفسه. ص ٣٦١.
(٢٠٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٤.
(٢٠٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٢.
(٢٠٨) ثمرات الأوراق. ص ٣٥٩.. ٣٦٩
(٢٠٩) المصدر نفسه. ص٣٦٠.
(٢١٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٠. ٣٦١.
(٢١١) المصدر نفسه. ص ٣٦٠
(٢١٢) المصدر نفسه. ص ٣٦٥
(٢١٣) المصدر نفسه. ص ٣٦٦
(٢١٤) المصدر نفسه. ص ٣٦٦. ٣٦٧.
(٢١٥) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.
(٢١٦) المصدر نفسه. ص ٣٦٣
(٢١٧) المصدر نفسه. ص ٣٦٣. ٣٦٨.
(٢١٨) المصدر نفسه. ص ٣٦٩
(٢١٩) المصدر نفسه. ص ٣٦٩.
(٢٢٠) المصدر نفسه. ص ٣٦٢.

الأمثلة على ذلك وهي كثيرة جداً: "والخيل تجْمزُ جَمْزاً" (٢٢١). "وقمنا لبقيّةِ المشاهد قاصدين"(٢٢٢). "واقتحمنا إلى الغور عقبة. .." (٢٢٣). فالألفاظ "تجمز". و"اقتحمنا". و"قمنا" تدل على الحركة.

وامتازت رحلته بغزارة صورها الفنيّة. ويتضح ذلك في غير موضع من رحلته. ومنه قوله واصفاً دمشق ومصر وأهرامها. وشبابيك الوزارة وخزائنها. وهي تستقبل الوزير وتتمنّى رجوعه إليها: "وكادت دمشق تمدّ أيدي إعطائها لمجاذبةِ ركابهِ. ومصر تتضرّعُ بأصابع نيلها طمعاً في اقترابه. وترفع ثدي هَرَمِها داعياً إلى الله بعوده إليها وإيابه. وهمّ شباك الوزارة أن يتلقى صاحب فتحه. وصدر الخزائن أن يعانق ما اعتاده من رأي عَطْفه ومَنْحه"(٢٢٤).

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المطبوعة

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير الموصلي. أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن عبدالكريم. ت ٦٣٧هـ. (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.
- ابن تغري بردي. جمال الدّين أبو المحاسن الأتابكي،ت ٨٧٤هـ. (١٩٩٨م). الدّليل الشافي على المنهل الصّافي. تحقيق: فهيم محمد شلتوت , ط٢. دار الكتب المصريّة. القاهرة.
- ابن تغري بردي. جمال الدّين أبو المحاسن الأتابكي،ت ٨٧٤هـ. (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م). النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة. ط١. قدّم له وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت.
- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. ت ٤٠٣هـ. (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م). إعجاز القرآن. قدّم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ محمد شريف سكر. ط ٣. دار إحياء العلوم. بيروت.
- الإمام الحافظ بن عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري. ت ٢٥٦هـ. (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م). صحيح البخاري. مراجعة وضبط فهرسة. الشيخ محمد علي قطب. الشيخ هشام البخاري. ط ٢. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.
- الجاحظ. عمرو بن بحر. ت ٢٥٥هـ. البيان والتبيين. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. الطبعة الثانية. مكتبة الخانجي بمصر. ومكتبة المثنى ببغداد. ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

(٢٢١) المصدر نفسه. ص ٣٦١.
(٢٢٢) المصدر نفسه. ص ٣٦٤.
(٢٢٣) المصدر نفسه. ص ٣٦٣.
(٢٢٤) ثمرات الأوراق. ص ٣٦٧.

- ابن جابر الأندلسي. محمد بن أحمد. ت ٧٨٠هـ. (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م). الحلة السيرا في مدح خير الورى. تحقيق: علي أبو زيد. عالم الكتب. بيروت.
- الجرجاني. عبد القاهر أبو بكر بن عبدالرحمن بن محمد. ت ٤٧١هـ. دلائل الإعجاز في علم المعاني. صحّح أصله الأستاذ الشيخ محمد عبده. ووقف على تصحيحه وطبعه وعلّق حواشيه: الشيخ محمد رشيد رضا. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
- الجرجاني. عبد القاهر أبو بكر بن عبدالرحمن بن محمد. ت ٤٧١هـ. أسرار البلاغة في علم البيان. صححه وعلق حواشيه. السيد محمد رشيد رضا. دار المطبوعات العربية.
- الجرجاني. علي بن عبد العزيز. ت ٣٩٢هـ. (١٩٤٥م). الوساطة بين المتنبي وخصومه. ط١. تحقيق وشرح. محمد أبو الفضل إبراهيم. وعلي محمد البجاوي. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة.
- ابن حجة الحموي. تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد. ت ٨٣٨هـ. ثمرات الأوراق. تحقيق وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الجيل. بيروت. لبنان.
- ابن حجة الحموي. تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد. ت ٨٣٨هـ. خزانة الأدب وغاية الأرب. ط٢. شرح: عصام شعيتو. دار ومكتبة الهلال. بيروت. لبنان. ١٩٩١م.
- ابن حجة الحموي. تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد. ت ٨٣٨هـ. (١٣١٢هـ-١٨٩٤م). كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام. المطبعة الأنسية. بيروت.
- ابن حجر العسقلاني. (١٩٦٦م). الدررالكامنة في أعيان المئة الثامنة. حققه وقدم له ووضع فهارسه. محمد سيد جاد الحق. دار الكتب الحديثة. القاهرة.
- الحلي. صفي الدين عبد العزيز بن سرايا. ت ٧٥٠هـ. (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م). نتائج الألمعية في شرح الكافية البديعية. ط ١. مؤسسة الرسالة. بيروت. دار البشير. عمان.
- ابن خلدون. عبد الله بن محمد. ت ٨٠٨هـ. مقدمة ابن خلدون. مهّد لها ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طباعتها وحققها وضبط كلماتها وشرحها وعلق عليها. وعمل فهارسها؛ د. علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر. الفجالة. القاهرة.
- ابن رشيق. أبو علي الحسن القيرواني الأزدي. ت ٤٥٦هـ. (١٤٠١هـ - ١٩٨١م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ٥. دار الجيل. بيروت. لبنان.
- السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ. (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م). الذيل التام على دول الإسلام للذهبي. حققه وعلق عليه: حسن إسماعيل مروة. قرأه وقدم له: محمود الأرناؤوط. ط١. مكتبة العروبة. الكويت. دار ابن العماد. بيروت.

- السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ. (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م). وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام. تحقيق: د. بشار عواد معروف. عصام فارس الحرستاني. د. أحمد الخطيمي. ط١. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.
- السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. ت ٩١١هـ. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق: أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية. بيروت. لبنان.
- السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. ت ٩١١هـ. (١٣٢١هـ - ١٩٠٣م). حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. مصطفى فهمي الكتبي. القاهرة.
- شهاب الدين محمود الحلبي. ت ٧٢٥هـ. (١٩٨٠م). حسن التوسل إلى صناعة الترسل. تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف. دار الرشيد للنشر. بغداد.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤هـ. (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م). أعيان العصر وأعوان النصر. حققه: د. علي أبو زيد. د. نبيل أبو عمشة. د. محمد موعد. د. محمود سالم محمد. قدم له: مازن عبد القادر المبارك. ط١. دار الفكر المعاصر. بيروت. دار الفكر. دمشق.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤هـ. جنان الجناس في علم البديع. ط١. دار ا لمدينة. بيروت.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤هـ. (١٣٩٥هـ-١٩٧٥م). الغيث المسجم. شرح لامية العجم. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤هـ. (١٩٧٩م). فض الختام عن التورية والاستخدام. دراسة وتحقيق: الحمدي عبد العزيز الحناوي. دار الطباعة المحمدية. القاهرة.
- الصفدي. صلاح الدين خليل بن أيبك. ت ٧٦٤هـ. الوافي بالوفيات. الجزء الأول. والثالث. والثاني عشر. محققون مختلفون.
- ابن طباطبا العلوي. محمد بن أحمد. (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م). عيار الشعر. دار صادر. بيروت.
- العسكري. أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل. ت ٣٩٥هـ. (١٤٠١هـ - ١٩٨١م). كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. حققه وضبط نصه. د. مفيد قميحة. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- العاملي. بهاء الدين. ت ٩٥٣هـ - ١٠٣١م. الكشكول. الطاهر أحمد الزاوي. دار إحياء الكتب العربية.
- عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي. ٥٥٠هـ - ٦٢٥. (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).عني بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه. محمد حسين شمس الدين. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.

- ابن العجمي. موفق الدين أحمد. ت ٨٨٤ هـ. (١٩٩٦م). كنوز الذهب في تاريخ حلب. تحقيق: د. شوقي شعث. فالح البكور. دار القلم العربي. حلب.
- الغزولي. علاء الدين علي بن عبدالله البهائي. ت ٨١٥هـ. (١٣٠٠هـ.) مطالع البدور ومنازل السرور. ط١. مطبعة إدارة الوطن. القاهرة.
- ابن القاضي. أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي. ت ١٠٢٥م. (١٣١٩هـ. ١٩٧١م). ذيل وفيات الأعيان المسمّى درة الحجال في أسماء الرّجال. تحقيق. محمد الأحمدي أبو النور. ط١. المكتبة العتيقة. تونس. دار التراث. القاهرة.
- القرطاجني. أبو الحسن حازم. ت ٦٨٤هـ. (١٩٨٦م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق. محمد الحبيب بن الخوجة. ط٣. دار الغرب الإسلامي. بيروت.
- المقريزي. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي. ت ٨٤٥هـ. (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م). السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- ابن منظور. محمد بن مكرم الأنصاري. ت ٧١١هـ. (١٤١٣هـ-١٩٩٣م). لسان العرب. ط٣. نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه. مكتب تحقيق التراث. دار إحياء التراث العربي. مؤسسة التاريخ العربي. بيروت.
- ابن الوردي. زين الدين عمر بن مظفر. (١٩٩٦م). تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي. دار الكتب العلمية. بيروت.
- ابن نُباتة المصري. جمال الدين. ت ٧٦٨ هـ. (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م). مطلع الفوائد ومجمع الفرائد. تحقيق: د. عمر موسى باشا. مطبوعات مجمع اللغة العربية. دمشق.
- ابن وكيع التنيسي. أبو محمد الحسن بن علي الضّبي. ت ٣٩٣هـ. (١٩٩٤م). المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره. حققه وقدم له: عمر خليفة بن إدريس. ط١. جامعة قاريونس. بنغازي.
- ياقوت الحموي. شهاب الدين أبو عبدالله الرومي البغدادي. ت ٦٢٦هـ. معجم البلدان. دار صادر. بيروت.

المراجع الحديثة

- نصار. حسين. (١٩٩١م). أدبيات أدب الرحلة. مكتبة لبنان. بيروت.
- عباس. إحسان. (١٩٩٣م). تاريخ النقد الأدبي عند العرب. نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري. ط٣. دار الشروق. عمان.
- طبانة. بدوي. (١٤٠١هـ - ١٩٨١م). أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية. ط٣. دار الثقافة. بيروت.

- طبانة. بدوي. السرقات الأدبية. (١٩٦٩م). دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها. ط٢. مكتبة الأنجلو المصرية.
- غريب. جورج. (١٩٧٢م). أدب الرحلة تاريخه وأعلامه. دار الثقافة. بيروت.
- حسني. حسني محمود. (١٩٧٦م). أدب الرحلة عند العرب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.
- عبد الرحيم. رائد. (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م). فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي. ط١. دار الرازي. عمان.
- عبد المهدي. عبد الجليل. (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م). بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية. دار البشير. عمان.
- عثمان. عبد الفتاح. نظرية الشعر في النقد العربي القديم. مكتبة الشباب. القاهرة.
- قلقيلة. عبده عبد العزيز. (١٩٧٢م). النقد الأدبي في العصر المملوكي. ط١. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.
- أبو زيد. علي. (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م). البديعيات في الأدب العربي. نشأتها. تطورها. أثرها. ط١. عالم الكتب. بيروت. دمشق.
- مال الله. علي محسن. (١٩٧٨م). أدب الرحلات عند العرب في المشرق. نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري. وزارة الثقافة والفنون. بغداد.
- باشا. عمر موسى. (١٩٦٣م). أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري. دار المعارف. القاهرة.
- البرازي. مجد باكير. (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م). النقد العربي القديم. ط١. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- عبد المطلب. محمد. (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م). اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين. ط١. دار الأندلس. بيروت. لبنان.
- الفقي. محمد كامل. (١٢٠٤هـ-١٩٨٤م). الأدب في ا لعصر المملوكي. ط٣. دار الموفق. مصر.
- سليم. محمود رزق. عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي. مكتبة الآداب. الجماميز. مصر.
- اليازجي. ناصيف. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب. دار القلم. بيروت. لبنان.

- بكار. يوسف. (١٣٧٩هـ-١٩٧٩م). بناء القصيدة العربية. دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة.

الرسائل الجامعية

- عبد الرحيم. رائد. (١٩٩٧م). "صورة المغول في الشعر العربي- العصر المملوكي". رسالة ماجستير. الجامعة الأردنية. عمان.
- محمد. محمود سالم. (١٩٨٧م). "المدائح النبوية في العصر المملوكي". رسالة دكتوراه. جامعة دمشق.
- الصايغ. هنريت زاهي سابا. (١٩٨٠م). "اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام". رسالة دكتوراه. جامعة القاهرة.

الدوريات العربية

- الهيب. أحمد فوزي. (١٤١٧ – ١٩٩٧م). "الجانب البديعي في شعر ابن الوردي". مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ج١. م٧٢.